سید هارتا

عنوان الكتاب : سيد هارتا

الكاتب: هرمان هسّه

ترجمة : فؤاد كامل

إعداد واختيار: مالك صقور

تقديم: فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/131/ أيار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني:mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

هرمان هسّه

سيد هارتا

ترجمة فؤاد كامل

إعداد واختيار: أ. مالك صقور

تقديم: فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (131)

تقديم

فلك حصرية

سيد هارتا هو ذلك الإنسان الذي بدأ بحب الحكمة، وانتهى بحكمة الحب، إنها قصة البطولة الروحية، حيث ينتقل فيها البطل من طائفة إلى أخرى متجاوزاً التعاليم والمذاهب جميعها، قاصداً وساعياً لكي تكون له تجربته الخاصة في الوصول إلى الحقيقة.

فـ/سيد هارتا/ كلمة سنسكريتية تعني /الرجل الذي بلغ هدفه/ وربما كان السؤال مبكراً هنا: هل تراه بلغ هدفه أم لا؟؟!! ليبقى الجواب معلقاً وفي مرمى القارئ، وبين يديه ليتوصل بنفسه إلى ما يشفي غليله في الكشف حول ذلك حين الانتهاء من قراءة هذه الرواية الرائعة التي لا نجامل مبدعها الكاتب الألماني /هرمان هسه/ الذي عرضها بشاعرية، ووجد للحياة والأحياء، ففيها الحرية، وفيها السمو، وفيها الإصغاء إلى الوجود، وفيها الانشغال بالزمان، والرغبة والحماسة إلى المعرفة والكشف عن

كل ما هو غامض، ومثير للتساؤل والحيرة، والسكن، واليقين والواقع أن أديبنا هرمان تمكن ـ وبعمق ـ من النجاح في الملامسة الغريبة والجريئة لما تحمله النفس البشرية وما تحاول الانطواء عليه وكتمانه ودفنه في حنايا الصدر، وخفايا الأسرار.

من هنا فقد استطاع هرمان هسه أن يرسم بسطوره وصياغاته الشاعرية ـ اللغوية، وبوساطة الجو الأسطوري الهندي الذي ينسج من أركانه أحداث ما جاءت بها الرواية الجميلة هذه، بخاصة ذلك القلق الدائم والمتدفق، الذي يجعل بل يضع الواحد منا على طريق رحلة البحث عن ذاته، ومحاولة إيجاد الأجوبة لعشرات الأسئلة التي تعشش في ذهنه، وتسيطر على تفكيره، وتجبره على اعتماد خوض ذلك الخيط الواهي الذي يربط ما بين الحقيقة والوهم، والواقع والخيال، والحياة والموت، والإيمان والإلحاد، حتى إذا ما أعيته الأسئلة، وأتعبته الفرضيات، واستهلكه البحث والتمحيص، وأضناه التخبط فيما كان ويكون وسيكون، وما آل ويؤول وسيؤول، وحطّت بمركبه التائه خلاصة الحياة، وأكسير الواقع، ونهاية المطاف، كان لزاماً عليه الإقرار بمعرفة الإله، والقناعة بوجوده، لأن معرفة هذا الخالق تعني معرفة ذاته ونفسه، وجدوى وجوده، وخلاصة خلقه، وهدف حياته ونهايتها.

لقد مثلت رواية سيد هاتار الحقيقة الأكيدة التي تكون المعرفة عينها، وجوهر الروح التي تسعى إلى الخلاص وتؤمن بالحقيقة الخالدة والأبدية التي تتوج الخاتمة لطريق التجربة الحية، والانغماس في الواقع الذي يعارض بالتجريد والابتعاد إلى ما وراء الميتافيزيقيا، والانعزال في حجرات مغلقة لا تسمن ولا تغني من جوع.

إن هرمان هسه حرص على إضفاء الوجودية على بطل روايته /سيد هاتار/ في البداية والنهاية كما حرص أشد الحرص على تخليصها من شوائب المذهبية من خلال ما بدا واضحاً من سعي هذه الشخصية الرئيسة، أو هذا البطل الروحي إلى الانعتاق من قيود المذهبية والتعاليم أياً وكيفما كانت، مع التأكيد على توق الشخصية إلى معرفة النفس وسبر أغوارها والسير في طريق بحثها عن الحقيقة دونما اتكال أو اعتماد على الآخر، منها هو ينتقل من طائفة إلى أخرى من دون التوقف عند تعاليم ومذاهب هذه أو تلك، بل معتمداً تجربته الخاصة، وطريقته الشخصية وصولاً إلى الحقيقة /التي يؤكد عليها دائماً/ والتي يعدها من أهم أعمدة الوجوديات الحقة، وما بين أيدينا من نموذج في هذه الرواية الهامة إنما يمثل أصدق دليل. باختصار نقول ونؤكد: "لقد بدأ هذا السيد سيدهارتا بحثه بحب الحكمة وانتهى بحكمة الحب".

يعد كاتب هذه الرواية الشائقة هرمان هسه من عباقرة الأدب الألماني الحديث، ومن شوامخ الروائيين في كل زمان ومكان.

ولد Hermann-Hesse في كالف في ألمانيا في /2 يوليو 1877 ـ وتوفي في/ مونتانيولاتيس 9 أغسطس 1962/ وهو كاتب سويسري من أصل ألماني.

كان هرمان متمرداً بطبيعته، يجنح إلى الخيال، ويتمسك بكل فكرة قد تمر في فكره، كان تمرده الأول على البيت وتلاه تمرده على المدرسة، وفي هذا يقول:

/لم أجد طوال الأعوام الثمانية التي قضيتها في المدرسة إلا مدرساً واحداً فقط أحسست تجاهه بالحب والامتنان/ كانت المدرسة في نظره هي العدو الذي يهجم عليه ويريد أن يفسد عليه حياته وموهبته. كان يريد أن يندمج في الطبيعة وفي كائناتها ليفهم حديث الزهور والحشرات والفراشات ويتأمل الشجرة وهي تنمو، والحيوان وهو يكبر ويعيش الطبيعة.

بدأ بالشعر وهو يشير إلى ذلك:

/لقد تبينت بوضوح عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري أنني إما أن أصبح شاعراً أديباً أو لا أصبح لا شيئاً على الاطلاق/.

وبمعزل عن الأزمة النفسية التي تعرض لها هرمان ودخوله المصحة النفسية ومن اختلافه مع والديه ونفوره من المدرسة وما إلى ذلك فإن عمله في مكتبة /توبنجن/ ومهمته في تنظيم وأرشفة الكتب، وقضاء الوقت الطويل بين الكتب ساعد كل ذلك في بناء وتأسيس شخصيته الأدبية الفذة بخاصة وأنه درس الكتب اللاهوتية الموجودة في المكتبة، ومن ثم لاحقاً قرأ لكتاب ألمان كبار كـ /غوته ـ شيلر ـ ليسنج/ ودرس كذلك /الميثولوجيا الإغريقية/ وفي العام 1895 بدأ قراءة /نيتشه/ الذي كانت لفلسفته تأثير كبير على معظم رواياته، إضافة إلى تأثره بالفكر الرومانسي بعد قراءته لأعمال الرومانسيين الألمان كـ /كلمنس ـ فون برنتانو ـ جوزيف فرايهر ـ فون ايشندورف ـ فريدرشن هولارلين ـ نوفاليس/.

في العام 1896 ظهرت قصيدة له بعنوان /مادونا Madonna/ في مجلة /فيينا/ وخريفاً أصدر مجلداً صغيراً من الأشعار والأغاني الرومانسية بعنوان /قصائد رومانسية/ وكان أول مجلد ينشر له.

وفي العام 1904 اهتم الناشر /صمويل فيشر بهسه/ بطباعة رواية /بيتر كامينتسيند/ التي أصبحت رواية شعبية جداً في ألمانيا وبالتالي حصدت لـ /هرمان هسه/ شهرة واسعة، ومكنته من كسب العيش ككاتب، وأشاد بها /سيجموند فرويد/ وعدَّها

واحدة من الروايات المفضلة لديه. في العام 1906 ألف روايته الثانية /تحت الدولاب/ ليكتب بعدها عدداً من القصص القصيرة والقصائد، لتأتي بعد ذلك روايته التالية /جرترود/ في العام 1910 ومن ثم نشر في العام 1914 روايته /رومهالده/ تبعتها بأعوام روايته /دميان/ ليأتي عمله الضخم /كلينجزور في صيفه الأخير/ في العام 1920، وبعدها بـ /عامين ظهرت هذه الرواية التي بين أيدينا حيث تشير إلى محبة هرمان هسه للثقافة الهندية، والفلسفة البوذية اللتين أثرتا عليه في فترة سابقة من حياته وبعدها تتابعت أعماله /كورجاست 1925 ـ رحلة نورمبيرح 1927 ذئب البوادي 1927 ـ نرجس وفم الذهب 1930/ لعبة الكريات الزجاجية 1943 ـ والتي نال عليها جائزة نوبل في الآداب في العام 1946.

نال هرمان هسه العديد من الجوائز منها:

جائزة غوته ـ دكتوراه فخرية من جامعة برن ـ جائزة فلهلم رابه وغيرها.

من أجمل ما قاله هسه:

ـ إنك لا تخاف إلا حين لا تكون منسجماً مع نفسك، والناس خائفون لأنه لم يسبق لهم أن كانوا مسيطرين على أنفسهم.

ـ عليك أن تجرب المستحيل لتصل إلى الممكن.

الفصل الأول

ابن البرهمي

في ظلال البيت، وفي ضياء الشمس المشرقة على ضفة النهر حيث ترقد الزوارق، وتحت ظل الغابة الشاحبة وشجرة التين، نشأ "سيد هارتا" الوسيم ابن البرهمي مع صديقه "جوفيندا".

وكانت الشمس قد لوّحت مِنكبيه النحيلتين عند شاطئ النهر أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين.. وكانت الظلال تخايل عينيه وهو يلعب في بستان المانجو، بينما أخذت أمه في الغناء، وأبوه في إلقاء تعاليمه بين أنداده من العلماء. وكان "سيدهارتا" قد شارك فعلاً منذ وقت بعيد في المحادثات التي تدور بين هؤلاء العلماء، واشتبك في جدال مع جوفيندا، ومارس فن التأمل والتفكير في صحبته، وعرف أيضاً كيف ينطق كلمة "أوم" Om صامتاً، هذه الكلمة التي هي أم الكلمات، وكيف يلفظها في دخيلة نفسه مع دخول

الشهيق، وعندما ينفث الزفير بجماع روحه، وقد شعّ جبينه وهجاً من الروح الطاهر. وكان قد عرف أيضاً كيف يتعرف على "أتمان" Atman في أعماق وجوده الذي لا يتطرق إليه الفناء، والمتناغم مع الكون..

وكان السرور يغمر قلب أبيه كلما شاهد ابنه الذكي المتعطش إلى المعرفة، وكان يراه وقد شب عن الطوق عالماً عظيماً، وكاهناً، وأميراً بين البراهمة.

وكان الزهو يملأ صدر أمه كلما رأته ماشياً أو قاعداً أو قائماً، وكان سيد هارتا القوي الوسيم ذو الأطراف المطواعة يحييها في رشاقة كاملة.

وكان الحب يتحرك في أفئدة بنات البراهمة الغريرات كلما عبر سيد هارتا شوارع القرية بجبينه الأشم، وبعينيه الملكيتين، وقوامه السمهري.

وكان صديقه "جوفينيدا"، ابن البرهمي، يحبه كما لا يحب أحداً آخر: كان يحب عينيْ سيد هارتا، وصوته الصافي.. كان يحب مشيته والرشاقة الكاملة التي تتسم بها حركاته.. كان يحب كل ما يفعله سيد هارتا وكل ما يقوله، ويحب فوق هذا كله، عقله، وأفكاره المتقدة المرهفة، وإرادته القوية، وشعوره بسمو رسالته. وكان جوفيندا يعلم أن صديقه لن يكون

برهمياً عادياً، أو كاهناً كسولاً يقدم القرابين، أو تاجراً بخيلاً للأقوال السحرية، أو واعظاً مغروراً لا وزن له، أو راهباً ماكراً شريراً، كلا، ولن يكون مجرد شاة غبية طيبة بين قطيع كبير.. كلا ولن يكون جوفيندا نفسه ولا يريد أن يكون شيئاً من هذا كله، أو مجرد برهمي مثل عشرة آلاف برهمي آخر من هذا الطراز..

إنه يريد أن يتبع سيد هارتا المحبوب الرائع. فإذا شاءت الأقدار أن يصير إلها، وأن يدخل في حضن النور الشامل، فإن جوفيندا يريد أن يتبعه بوصفه صديقاً ورفيقاً وخادماً وحامل رمحه، وظلاً من ظلاله..

وعلى هذا النحو، كان الجميع يحبون "سيد هارتا". وكان هذا الحب مبعث سروره. فكان يسعده أن يكون مصدر سعادة للآخرين..

بيد أن "سيد هارتا" نفسه لم يكن سعيداً.. فعندما يتجول في الممرات الوردية التي تقطع بستان التين، ويجلس غارقاً في تأملاته تحت ظلال الأيكة المائلة إلى الزرقة، أو يغسل أطرافه في حمام التكفير اليومي، أو يقدم القرابين في أعماق غابة المانجو الظليلة بحركاته تلك التي تتسم بالرشاقة الكاملة، والتي يعشقها الجميع ويسر لها الناس جميعاً.. عندما يفعل هذا

كله، كان خاوياً من السعادة. كانت الأحلام والخواطر القلقة تتدفق عليه من النهر، أو تتساقط عليه من نجوم الليل المتلألئة، أو تغمره من أشعة الشمس الذائبة، وتأتي إليه الأحلام وينتابه القلق الذي لا يدع للروح مستقراً، منبعثاً من دخان القرابين، صادراً عن أشعار الريجفيدا Rig-Veda، منساباً من تعاليم البراهمة الأقدمين.

بدأ سيد هارتا يشعر ببذور السخط تنبت داخل نفسه، وأخذ يشعر أن حب أبيه وأمه، وكذلك حب صديقه "جوفيندا"، لا يجعله دائماً سعيداً. ولا يمنحه الطمأنينة، ولا يرضيه، ولا يكفيه. وجعل يرتاب في أن والده المبجل ومعلميه الآخرين من البراهمة الحكماء قد نقلوا إليه لب حكمتهم وخير ما فيها، وأنهم قد صبوا جماع معرفتهم في وعائه المنتظر، غير أن الوعاء لم يمتلئ، وعقله لم يقنع، وروحه لم تعرف الأمن، وقلبه لم ينعم بالاستقرار.. وكانت شعائر التطهير شيئاً طيباً، ولكنها لم تكن أكثر من ماء.. فهي لا تمحو الخطايا تماماً، ولا تفرِّج عن القلب المكروب.. وكانت القرابين والضراعات التي ترفع إلى الآلهة رائعة.. ولكن هل كانت كل شيء؟ هل تهب القرابين السعادة؟ وماذا عن الآلهة؟ هل كان "براجاباتي" Prajapati هو الذي خلق العالم حقاً؟ ألم يكن "أتمان" ـ وهو وحده ـ الذي

خلقه؟ أليست الآلهة أشكالاً مخلوقة مثلي ومثلك أشكالاً فانية، عابرة؟ أمن الخير والحق إذن، أو من الصواب والحكمة تقديم القرابين للآلهة؟ لمن إذن يكون من الواجب على المرء أن يقدم القرابين؟ ولمن يسبّح إن لم يكن له هو: "أتمان" الواحد الأوحد؟ وأين يمكن أن يوجد أتمان؟ أين يسكن؟، وأين ينبض قلبه الأبدي إن لم يكن داخل "الذات" في الأعماق، في الأبدي الذي يحمله كل إنسان في سريرة نفسه؟ ولكن أين هذه "الذات".. هذه السريرة؟ إنها ليست اللحم والعظم، وليست الفكر أو الشعور.. هذا ما يعلمنا الحكماء.. أين هي إذن؟ الإسراع نحو الذات، صوب أتمان. هل هناك سبيل آخر أحق بالسعي؟ لم يبين الطريق أحد.. ولم يعرفه أحد ــ لم يعرفه أبوه أو المعلمون أو الحكماء، أو الأغاني المقدسة؟ البراهمة وكتبهم المقدسة يعلّمون كل شيء.. كل شيء لقد تناولوا كل شيء ــ خَلْق العالم، أصلا الكلام، الطعام، الشهيق، الزفير، ترتيب الحواس، أفعال الآلهة، إنهم يعرفون عدداً هائلاً من الأشياء.. ولكن ما قيمة معرفة هذه الأشياء جميعاً إن لم يعرفوا الشيء الوحيد المهم، الشيء الأوحد المهم؟

كثيرة هي القصائد التي تضمها الكتب المقدسة، ولا سيما أوبانيشاد سامافيدا Upanishads Samavida التي تحدثت

عن هذا الشيء المستتر. وقد كُتِب فيها "إن روحك هي العالم بأسره". وتقول إن الإنسان عندما ينام ينفذ إلى أعماق سريرته ويستقر في "أتمان". وهي قصائد حافلة بحكمة رائعة، ومعرفة الحكماء كلها تُرْوى هنا في لغة غنائية صافية كعسل النحل.. كلا، إن هذا القدر الهائل من المعرفة الذي جمعته وحفظته أجيال متعاقبة من البراهمة الحكماء، لا يمكن أن نتجاهلها في يسر. ولكن أين هم البراهمة والكهنة والحكماء الذين أفلحوا، لا في الحصول على هذه المعرفة العميقة، بل في تجربتها؟ أين هم السالكون الذين بلغوا "أتمان" في منامهم، ثم استطاعوا الاحتفاظ به في الوعي، في الحياة، في كل مجال، في الأقوال والأفعال؟ وكان سيد هارتا يعرف كثيراً من البراهمة الأجلاء، ويعرف أباه فوقهم جميعاً ـ كانوا جميعاً مقدسين، متبحرين في العلم، جديرين بأسمى آيات التقدير، وكان أبوه خليقاً بالإعجاب، وسلوكه يكتسي بالهدوء والنبل، وهو يحيا حياة طيبة، وعباراته تشع بالحكمة، والأفكار الجميلة النبيلة تستقر في رأسه ـ ولكن، حتى هذا الذي يعرف كل هذه المعرفة، أيعيش في سعادة؟ أو يعرف السلام؟ أليس هو أيضاً باحثاً لا يشبع؟ ألا يذهب دائماً وأبداً إلى الينابيع المقدسة يحدوه ظمأ لا يرتوي، وإلى القرابين، والكتب، ومحاضرات البراهمة! ولماذا

ينبغي عليه، وهو المنزه عن اللوم، أن يزيل خطاياه، ويحاول أن يطهر نفسه من جديد كل يوم، أيكون أتمان غير موجود في داخله؟ أيكون النبع غير موجود داخل قلبه؟ على المرء أن يجد المنبع داخل "ذاته"، ولابد للمرء من أن يمتلكه. وما عدا ذلك فهو بحث.. ضلال وخطأ.

كانت هذه أفكار سيد هارتا، وكان هذا تعطشه وحزنه.

وكان كثيراً ما يردد بينه وبين نفسه العبارات الواردة في كتاب من كتب تشاندوجيا ـــ أوبانيشاد -Chandogia Upanshad.

كانت هذه العبارات تقول: إن اسم براهما ـ في الحقيقة ـ هو ساتيام، وبالطبع فإن من يعرفه يدخل العالم العلوي كل يوم.

وكان لهذا العالم العلوي يبدو قريباً في كثير من الأحيان، ولكنه لم يصل إليه فقط، ولم يطفئ ظمأه النهائي أبداً.. ولم يكن بين الحكماء الذين عرفهم والذين استمتع بتعاليمهم، من بلغ هذا العالم العلوى تماماً، أو أطفأ ذلك الظمأ الأبدي تمام الإطفاء.

قال سيد هارتا لصديقه: "جوفيندا.. تعال معي إلى شجرة البنيانا (التين الهندي)، لنمارس التأمل.."

وذهبا إلى شجرة البنيانا، وافترشا الأرض وبينهما مسافة عشرين خطوة. وما أن جلس سيد هارتا متأهباً لنطق اسم الإله، حتى أنشد هذه الأبيات بصوت رقيق:

"أوم هو القوس، والسهم هو الروح،

وبراهما هو هدف السهم

الذي يسدده المرء دون إجفال".

وعندما انقضى الوقت المعتاد لممارسة التأمل، نهض جوفيندا. كان المساء قد حل، وحان وقت أداء التطهرات المسائية. فنادى على سيد هارتا باسمه، فلم يرد عليه. كان سيد هارتا مستغرقاً في تأملاته وقد تركزت عيناه كأنهما مسددتان على هدف بعيد، وظهر طرف لسانه قليلاً من بين أسنانه، وبدا كأنه يتنفس. وهكذا جلس غارقاً في تأمله يفكر في "أوم"، وروحه كالسهم مسددة صوب "براهما".

وذات يوم عبرت قرية سيد هارتا جماعة من السامانا Samanas مؤلفة من ثلاثة من الزهاد المتجولين يعلوهم النحول والإرهاق.. وكانت أعمارهم وسطاً بين الشيخوخة والشباب، وعلى أكتافهم الدامية طبقة من التراب، كانوا شبه عراة وقد أحرقتهم الشمس، متوحدين، غرباء، متوجسين.. ثعالب عجافاً

في عالم البشر. حولهم يحوم جو من العاطفة الهامدة، ومن الخدمة الماحقة، ومن إنكار للذات لا يعرف الرحمة..

وفي المساء بعد انتهاء ساعة التأمل قال سيد هارتا لجوفيندا: "في صباح غد سينظم سيد هارتا للسامانا يا صديقي. إنه سوف يصبح سامانيا". وامتقع وجه "جوفيندا" وهو يسمع هذه الكلمات، وطالع التصميم في وجه صديقه الذي ارتسم العزم على ملامحه، وكسته الصرامة كالسهم المنطلق من القوس. وأدرك "جوفيندا" من اللمحة الأولى التي رمق بها وجه صديقه أن البداية قد حلت. إن "سيد هارتا" يشق الآن طريقه الخاص، وأن مصيره قد شرع ينشر طياته، مع مصيره هو أيضاً، وغدا "جوفيندا" شاحباً كقشرة موز جافة.

وهتف قائلاً: "أي سيد هارتا، وهل يسمح أبوك بذلك؟.." ونظر إليه سيد هارتا كشخص استيقظ لتوه.. وفي سرعة البرق لتوه.. وفي سرعة البرق، قرأ ما يجول في نفس جوفيندا.. قرأ الجزع والتسليم.

فأجاب في رقة: "لا داعي للإفاضة في الكلام، غداً عند مطلع الفجر، سأبدأ حياة السامانى. فلنضرب صفحاً عن مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى".

ودخل سيد هارتا الحجرة التي يجلس فيها أبوه على حشية من الليف. ووقف وراء أبيه، وظل واقفاً في مكانه حتى أحس أبوه بوجوده. فسأله البرهمي:

"أهذا أنت ياسيد هارتا؟ أفصح عما يدور في ذهنك". فقال سيد هارتا "بعد إذنك يا أبي جئت لأخبرك إنني سأغادر منزلكم غداً، وسألحق بالزهاد.. أريد أن أكون سامانيا، وأنا على ثقة في أن أبي لن يعارض". والتزم البرهمي الصمت طويلاً حتى عبرت النجوم وغابت عن النافذة الصغيرة، وغيرت تشكيلها قبل أن ينقطع الصمت أخيراً من الحجرة. وكان ابنه يقف ساكناً لا يتحرك وقد تشابكت ذراعاه، وكذلك، جلس الأب صامتاً لا حراك به فوق الحشية، والنجوم تعبر صفحة السماء. وحينئذ قال الأب "لا يليق بالبراهمة أن يتفوهوا بألفاظ عنيفة غاضبة، بيد أن ثمة استياء في قلبي .. فلا أحب أن أسمع منك هذا الطلب مرة أخرى". ونهض البرهمي متئداً. وظل سيد هارتا صامتاً شابك الذراعين.

فسأله أبوه: لماذا تنتظر؟

فأجابه سيد هارتا: "أنت تعرف السبب".

وغادر أبوه الحجرة حانقاً. ورقد على سريره. فلما انقضت ساعة. دون أن يستطيع النوم، نهض البرهمي، وأخذ يتجول هنا

وهناك، ثم غادر المنزل.. ونظر عبر نافذة الحجرة الضيقة، فأبصر سيد هارتا واقفاً هناك وقد شبك ذراعيه، بلا حراك. وكان يستطيع أن يرى رداءه الشاحب يومض واهناً.. وهنا اضطرب قلب الأب، فعاد إلى فراشه.

فلما انقضت ساعة أخرى دون أن يستطيع البرهمي النوم، نهض مرة أخرى وأخذ يذرع البيت هنا وهناك، ولم يلبث أن بارحه، فأبصر القمر بازغاً، فأرسل بصره خلال النافذة. كان سيد هارتا منتصباً هناك دون حراك، شابكاً ذراعيه. وسطع القمر على ساقيه العاريتين. وعاد الأب إلى فراشه مضطرباً واجف القلب..

وعاد ثانية بعد ساعة. ثم عاد مرة أخرى بعد ساعتين، ونظر خلال النافذة فرأى سيد هارتا واقفاً في نور القمر، وفي ضوء النجوم، وفي الظلام. ثم أتى صامتاً مرة أخرى، وساعة أثر أخرى، ونظر في الحجرة ورآه واقفاً بلا حراك. فامتلأ قلبه بالغضب، والقلق، والخوف، والأسى..

وفي الهزيع الأخير من الليل، قبل مطلع الفجر، رجع مرة أخرى، ودخل الحجرة، فأبصر الشاب واقفاً هناك، فبدا طويلاً، وغريباً عنه.

قال.. "سيد هارتا.. لماذا تنتظر؟"

ـ "أنت تعرف السبب"..

ـ "هـل سـتظل واقفـاً تنظـر حتـى يحـل النهـار، والظهـر، والمساء؟"

ـ "سأقف وأنتظر".

ـ "سينال منك التعب، أي سيد هارتا"

ـ "سينال مني التعب.."

ـ"سوف يغشاك النوم، أي سيد هارتا"

ـ "لن يغشاني النوم".

ـ "ستموت.. أي سيد هارتا.."

ـ "سأموت"

ـ "وهل تؤثر الموت على أن تطيع أباك؟"

ـ "لقد أطاع سيد هارتا دائماً أباه.."

ـ "إذن فسوف تعدل عن مشروعك؟"

ـ "سيفعل سيد هارتا ما أمره به أبوه.."

وتسـلل أول شـعاع مـن الضـوء إلى الحجـرة. ورأى البرهمـي أن ركبتي سيد هارتا ترتعدان رعدة خفيفة، وإن لم يكن هناك أي أثر للارتعاد على وجه سيد هارتـا. وكانـت عينـاه تنظـران بعيـداً،

وعندئذ أدرك الأب أن سيد هارتا لا يستطيع أن يمكث معه في المنزل ـ وأنه قد فارقه فعلاً.

ولمس الأب كتف سيد هارتا وقال: "سوف ترحل إلى الغابة لتصبح سامانيا، فإن وجدت السعادة في الغابة، فعد إليّ وعلمني إياها. وإن انقشعت أوهامك، فارجع، وسنقدم القرابين للآلهة معاً مرة أخرى. والآن اذهب فقبّل أمك، وأخبرها أين ستذهب. أما أنا، فقد حان وقت ذهابي إلى النهر لأقوم بالاغتسال الأوّل.."

وأرخى يده متخلياً عن كتف ابنه. وخرج. وترنح سيد هارتا حينما هم بالسير، ولكنه جمع نفسه، وانحنى لوالده، ثم ذهب إلى أمه ليصنع ما أُمر به.

وما إن بارح القرية التي كانت نائمة عند مطلع الفجر، بساقيه المخدرتين، حتى برز شبح محني الظهر من الكوخ الأخير، وانضم إلى المهاجر.. وكان هذا الشبح هو "جوفيندا".

قال سيد هارتا: "ها أنت قد أتيت.." ثم ابتسم.. فقال جوفيندا: "نعم.. لقد أتيت"..

الفصل الثاني

مع الساماتا

"النساك"

وفي مساء ذلك اليوم لحقوا بالساماتا، وطلبوا مرافقتهم والولاء لهم. فاستجابوا لطلبهم، وأعطى "سيد هارتا" ثيابه لبرهمي مسكين صادفه في طريقه، ولم يحتفظ إلا بمئزره وبعباءة غير مخيطة بلون الأرض، ولم يكن يأكل غير مرة واحدة في اليوم، ولا يطهو الطعام إطلاقاً. وكان يصوم أربعة عشر يوماً. ثم صام ثمانية وعشرين يوماً. فاختفى اللحم من ساقيه ووجنتيه، وانعكست أحلام غريبة في عينيه اللتين ازدادتا اتساعاً. وطالت الأظفار في أنامله النحيلة، وظهرت لحية كثة فوق ذقنه. وكانت نظراته جليدية إذا التقى بالنساء، وتلتوي شفتاه اشمئزازاً إذا مر ببلدة يرتدي أهلها فاخر الثياب وكان يرى رجال الأعمال يتاجرون، والأمراء يخرجون للصيد،

والنائحين يبكون موتاهم، والبغايا يعرضن أنفسهن، والأطباء يعالجون المرضى، والكهنة يقررون تمضية يومهم في بذر الحب، والعشاق يتبادلون الحب، والأمهات يعللن أطفالهن ـ ولم يكن هذا كله يستحق لمحة عابرة، كل شيء يكذب، مستنقع من الأكاذيب.. إنها كلها أوهام صنعتها الحواس والسعادة والجمال.. كل شيء مآله الفناء، والعالم مذاقه مر، والحياة نسيجها عذاب..

ولم يكن لسيد هارتا غير هدف واحد: أن يصبح خالياً.. خالياً من العطش والشهوة والأحلام والمتعة والآلام ـ أن يقضي بالموت على "الذات".. ألا يعود "ذاتاً"، وأن يجرب السلام الذي ينعم به قلبٌ خاوي الوفاض، وأن يجرّب الفكر الخالص، هذا هو هدفه، فعندما ينتصر على "الذات" كلها فتموت، وعندما تصمت الشهوات والرغبات جميعاً، حينئذٍ تستيقظ البقية الأخيرة، أعماق "الوجود" الذي لم يعد "ذاتاً" ـ السر الأعظم!

وكان سيد هارتا يقف ساكناً تحت أشعة الشمس الناهشة، يفيض ألماً وظمأً، ولا يفتأ واقفاً حتى يبارحه الشعور بالألم والظمأ. وصامتاً يقف تحت المطر، ينسكب الماء من شعره على كتفيه المتجمدتين، وعلى فخذيه وساقيه المتجمدتين. ويظل الزاهد واقفاً حتى تنقطع كتفاه وساقاه عن التجميد، حتى

تصمت وحتى تسكن. وصامتاً يرقد بين الأشواك. فإذا سالت الدماء من جلده الموخوز، وتكونت القروح، ظل سيد هارتا متصلباً جامداً حتى تتوقف الدماء عن النزيف، وحتى ينقطع لذع الألم، ووخز الأشواك.

وكان سيد هارتا يجلس مستقيماً، وتعلم توفير أنفاسه، حتى تمكّن من الاكتفاء بأقل قدر منها، بل الإمساك عن التنفس. وتعلم أثناء الشهيق أن يهدئ ضربات قلبه، وأن يقلل من نبضاته، حتى لم يبق منها إلا القليل، بل كاد لا يتبقى منها شيء.

وخضوعاً لتعاليم أكبر السامانا سنّاً، مارس سيد هارتا إنكار الذات والتأمل وفقاً لقواعد السامانا. وذات مرة حلّق طائر البلشون "مالك الحزين" فوق غابة البامبو. فوضعه سيد هارتا في أعماق روحه، وهكذا حلق فوق الغابة والجبال، وأصبح بلشونا يأكل الأسماك، ويعاني من الجوع الذي يعانيه البلشون، ويستخدم اللغة التي يستخدمها البلشون، وأخيراً مات ميتة البلشون. وعلى الشاطئ الرملي رقد ثعلب ميت، فتسللت روح سيد هارتا إلى الجثة، فصار ميتاً، راقداً على الشاطئ، منتفخاً نتناً، عفناً، انتزعت أطرافه الضباع، ونهشته جوارح الطير، حتى غدا هيكلاً، ثم تراباً اختلط بالرياح. وعادت روح سيد هارتا،

وماتت، وتآكلت، ورجعت إلى التراب، وعانت السيرة المضطربة لدورة الحياة. وانتظر يدفعه ظمأ جديد كصياد إزاء جحر حيث تنتهي دورة الحياة، وحيث توجد نهاية للأسباب، حيث يبدأ الأبد الذي يخلو من الآلام.. لقد أباد حواسه، وقتل ذاكرته، وأفلت من "ذاته" بآلاف من الصور المختلفة.. تشكل في صورة حيوان، وجيفة، وحجر، وخشب وماء، وكان يعود إلى الحياة في كل مرة. والشمس تسطع، والقمر يطلع، وها هو "ذات" مرة أخرى، يتأرجح في دورة الحياة، ويشعر بالظمأ، ويتغلب عليه، ويشعر بظمأ جديد..

وتعلم سيد هارتا الكثير من السامانا، تعلم أساليب كثيرة لفقدان "الذات". وسافر في طريق إنكار الذات عبر الألم، وعبر التعبير الإداري، والتغلب على الألم، عبر الجوع والعطش والتعب.. وسافر في طريق إنكار الذات عبر التأمل، وعبر إخلاء الذهن من الصور جميعاً. عبر هذه وغيرها من السبل تعلم السفر. وفقد ذاته آلاف المرات وظل أياماً بأكملها مقيماً في العدم.. ولكن على الرغم من أن تلك السبل قادته بعيداً عن "الذات"، فقد كانت تعود به في النهاية إليها دائماً. ومع أن "سيد هارتا" أفلت من "الذات" آلاف المرات، واستقر في العدم، وأقام في الحيوان والصخر، إلا أن العودة كانت محتومة. كانت اللحظة التي يجد

فيها نفسه في ضوء الشمس أو نور القمر، في الظل أو المطر، كانت هذه اللحظة حتماً مقضياً، فيعود "ذاتا" ويعود "سيد هارتا"، ويعود يشعر بالعذاب المصاحب لدورة الحياة الشاقة..

وإلى جانبه عاش "جوفيندا" كظله، يسافر معه في الطريق نفسه، ويقوم بالمحاولات نفسها، وقلما كانا يتحادثان إلا في ضرورات العبادة والطقوس.

وكانا يذهبان أحياناً معاً إلى القرى يستجديان الطعام لهما ولمعلميهما. وفي إحدى رحلات الاستجداء هذه سأل سيد هارتا: "هل تعتقد يا جوفيندا أننا تقدمنا قليلا؟ هل وصلنا إلى هدفنا"؟.

فأجاب جوفيندا: "لقد تعلمنا، ومازلنا نتعلم وستصبح سامانيا عظيما ياسيد هارتا. ولقد تعلمت كل تمرين بسرعة. وشيوخ السامانا يثنون عليك في كثير من الأحيان. وسيأتي يوم تصبح فيه رجلاً مقدساً يا سيد هارتا".

قال سيد هارتا "لا يبدو الأمر لي على هذا النحو يا صديقي، فإن ما تعلمته من السامانا الآن، كان يمكن أن أتعلمه أسرع وأيسر في أي حانة في حي البغايا بين الحمالين ولاعبي النرد".

قال جوفيندا: "لا شك أن سيد هارتا يمزح، فكيف يمكن أن تتعلم التأمل وحبس النفس وعدم الإحساس بالجوع والألم مع

أولئك الأوغاد؟" فأجاب سيد هارتا في رفق وكأنما يناجي نفسه. "ما التأمل؟ وما التخلي عن الجسد؟ وما الصوم؟ وما حبس النفس؟ إنه هروب من "الذات"، إنه فرار مؤقت من عذاب "الذات"، إنه مسكن مؤقت للألم وحماقة الحياة. إن سائق الثيران يلجأ إلى هذا الهروب نفسه، ويتناول هذه الجرعة المؤقتة نفسها عندما يشرب في الحانة بضع طاسات من نبيذ الأرز أو لبن جوز الهند.. عندئذ يفقد الشعور بذاته، ولا يشعر بآلام الحياة. وفي هذه الحالة يجرب الهروب المؤقت. فإذا ارتمى نائماً فوق طاسة نبيذ الأرز، وجد ما يجده سيد هارتا وجوفيندا عندما يهربان من جسديهما بالمران الطويل ليستقرا في "اللاذات".

قال جوفيندا: "تقول هذا يا صديقي، ومع ذلك فأنت تعلم أن سيد هارتا ليس سائقاً للثيران، كما أن السامانى ليس سكيراً. إن مدمن الشراب لا يجد المهرب حقاً، وإنما يجد راحة قصيرة وسكناً، ولكنه يعود من الوهم ليجد كل شيء كما كان من قبل، فهو لم يصبح أوفر حكمة أو أغزر معرفة، ولم يصعد إلى مكان أعلى".

فأجاب سيد هارتا بابتسامة على وجهه: "لستُ أدري فلم أكن سكيراً قط. يبدو أنني أنا الذي أدعي سيد هارتا.. لا أجد إلا راحة قصيرة في تماريني وتأملاتي، وأنا بعيد عن الحكمة،

وعن الخلاص بُعْد طفل في رحم أمه ـ هذا هو ما أعرفه، يا جوفيندا".

وفي مناسبة أخرى، عندما ترك سيد هارتا الغابة بصحبة جوفيندا لاستجداء الطعام لإخوانهما ومعلميهما، شرع سيد هارتا في الحديث وقال: "حسن ياجوفيندا، أترانا على الطريق الصحيح؟ وهل تكتسب المعرفة؟ وهل نقترب من الخلاص، أم ترانا ندور في حلقات ـ نحن الذين نظن إننا نهرب من الدورة؟"

فقال جوفيندا: "لقد تعلمنا الكثير يا سيد هارتا.. ومازالت هناك أشياء كثيرة لنتعلمها.. ونحن لا نسير في دوائر، بل نصعد إلى أعلى، الطريق حلزوني، وقد تسلقنا فعلاً كثيراً من الدرجات".

فأجاب سيد هارتا: "ما عمر أكبر سامانى هنا، معلمنا المبجل؟".

وقال جوفيندا: "أعتقد أن أكبرهم بلغ حوالي ستين عاماً..".

فقال سيد هارتا: "إنه في الستين من عمره، ومع ذلك لم يبلغ النرفانا. وسيصل إلى السبعين والثمانين من عمره وأنت وأنا، سنبلغ من العمر ما بلغه، وسنصوم ونتأمل. ولكننا لن نبلغ النرفانا سواء هو أو نحن.

"جوفيندا. إني أعتقد أن أحداً من السامانا لن يصل إلى النرفانا. إننا نلتمس ألوانا من العزاء ونتعلم ضروباً من الحيل نخدع بها أنفسنا، أما الشيء الجوهري ـ الطريق ـ فإننا لا نعثر عليه..."

قال جوفيندا: "لأتفه بمثل هذه العبارات المروعة يا سيد هارتا: فكيف يمكن أن يكون بين هؤلاء العلماء جميعاً، وهؤلاء البراهمة والزهاد والسامانا الأجلاء، وبين كل أولئك الباحثين، والذين كرسوا أنفسهم للحياة الباطنة.. بين كل هؤلاء الأشخاص المقدسين.. كيف لا يوجد بين هؤلاء جميعاً شخص واحد لا يجد الطريق الصحيح؟"

ومهما يكن من أمر، فقد أجاب سيد هارتا بصوت يحتوي على الحزن بقدر ما يحتوي على التهكم.. بصوت هادئ، حزين إلى حد ما، مازح إلى حد ما:

"قريباً سيترك صديقك ـ أي جوفيندا ـ طريق السامانا التي سافر فيها معك طويلاً.. إنني أعاني من الظمأ يا جوفيندا.

وفي هذا الطريق السامانى الطويل، لم يُخفِ ظمأ. لقد تعطشت دائماً إلى المعرفة. وكنت مليئاً بالأسئلة دائماً وأبداً. وطفقت أسأل البراهمة عاماً بعد عام، ثم أخذت أسأل كتب الفيدا المقدسة عاماً إثر عام. وربما كان من الخير أيضاً، ومن

الذكاء والقداسة أيضاً لو أنني سألت ـ يا جوفيندا ـ الخراتيت أو القرود. لقد أنفقت وقتاً طويلاً ولم أنتهِ بعد ـ أي جوفيندا ـ لكي أتعلم هذا: إن الإنسان لا يستطيع أن يتعلم شيئاً. ففي ماهية الأشياء على ما أعتقد ـ يوجد شيء ما لا نستطيع أن نسميه تعلماً. هناك يا صديقي معرفة واحدة ـ توجد في كل مكان ـ إنها إنسان، إنها فيَّ وفيكَ وفي كل مخلوق. وقد بدأت أعتقد أنه لا يوجد عدو لهذه المعرفة أسوأ من رجل المعرفة. ومن المتعلم".

وهناك وقف جوفيندا ساكناً في الطريق ثم رفع راحتيه قائلاً: "سيد هارتا لا تغم صديقك بمثل هذا الكلام.. أجل إن كلماتك تزعجني.. تفكر أي معنى يمكن أن يكون لصلواتنا المقدسة، ولتوفير البراهمة، ولقداسة السامانا إذا لم يكن هناك ـ كما تقول ـ أي تعلم؟ ماذا يمكن أن تصير إليه الأشياء جميعاً، وماذا سيكون مقدساً على الأرض، وأي شيء سيكون ثميناً جديراً بالعبادة؟".

وغمغم جوفيندا بيتاً من الشعر في نفسه، بيتا من أحد الأوبانيشاد: "إن من تغوص روحه الطاهرة المتأملة في أتمان، يذوق نعيماً لا تعبر عنه الكلمات".

وأخلد سيد هارتا إلى الصمت.. كان يتأمل الأقوال التي نطق بها جوفيندا، وقف صامتاً مطرق الرأس.. أجل ماذا سيبقى

من كل ما نعتقد إنه مقدس بالنسبة إلينا؟ ماذا سيبقى؟ بم سنحتفظ؟ وهزّ رأسه.

وكان الشابان قد سمعا ذات مرة، وهما يعيشان مع الساماناً بعد حوالي ثلاثة أعوام ويشاطرانها طقوسهم، سمعا من مصادر كثيرة إشاعة، وتقريراً لقد ظهر شخص يدعى "جوتاما" المستنير بوذا.. انتصر في نفسه على أحزان العالم، وأوقف عجلة العودة إلى الميلاد. وكان يجوب البلاد واعظاً يحوطه تلاميذه، لا يملك مالاً ولا داراً ولا زوجاً. يرتدي عباءة الزاهد الصفراء ولكنه يملك جبيناً أشم.. فهو رجل مقدس ينحني له البراهمة والأمراء ويصيرون من تلاميذه.

وهذا التقرير، وهذه الإشاعة، وهذه القصة تداولتها الأسماع، وانتشرت هنا وهناك. وكان البراهمة يتحدثون عنها في المدينة، والساماناً يحكونها في الغابة. وبلغ اسم "جوتاما" المستنير أسماع الشابين مشفوعاً بالمدح أو القدح، بالثناء أو الهجاء..

وكما يجتاح البلاد وباء، وتنتشر الشائعات بأن هناك رجلاً. رجلاً حكيماً، رجلاً عالماً، تكفي كلماته وأنفاسه لشفاء المكلومين، وكما تنتقل القصة من أقصى البلاد إلى أدناها فيتحدث عنها كل إنسان، فكذلك يصدقها كثيرون. ويرتاب فيها كثيرون. ومهما يكن من أمر، فقد مضى كثيرون

في سبيلهم على الفور بحثاً عن الرجل الحكيم والمحسن الكريم. وعلى هذا النحو طارت تلك الشائعة، هذه القصة السعيدة عن جوتاما المستنير "بوذا"، الرجل الحكيم المنحدر من سلالة ساكيا في أنحاء البلاد جميعاً. وكان المؤمنون به يقولون إنه على معرفة واسعة، وإنه يتذكر حيواته السابقة، وإنه بلغ النرفانا، ومن ثم، لم يعد إلى الدورة، وإنه لن يخوض مرة أخرى في تيار الصور العكر. وقد رويت عنه أمور كثيرة عجيبة تجل عن التصديق، فقد أتى بالأعاجيب، وهزم الشيطان، وكلّم الآلهة. أما أعداؤه والمتشككون فيه، فيقولون إن هذا الجوتاما خدعة لا أساس لها من الصحة، وإنه يقضي أيامه في بذخ مسرف، ويزدري القرابين، ولا شأن له بالعلم، ولا يعرف العبادات أو إماتة الجسد.

وكانت الشائعات المنتشرة حول بوذا تبدو جذابة وكأنما يسري شيء من السحر في هذا القصص.. فقد كان العالم عليلاً، والحياة عسرة، وهنا يلوح أمل جديد، ورسالة جديدة مريحة، حنون، حافلة بالوعود العذبة. وفي كل مكان، كانت تنتشر الشائعات حول بوذا، والشبان في كل أرجاء الهند يستمعون ويشعرون بالحنين والأمل.

وبين أبناء البراهمة في المدن والقرى، كانوا يرحبون بكل مسافر وغريب مادام يحمل أخباراً عنه.. عن المستنير ساكياموني..

وتناهت الشائعات إلى مسامع السامانا في الغابة، وكذلك بلغت سيد هارتا وجوفيندا رويداً رويداً، وكل نبأ صغير حافل بالأمل، حافل بالشك. وقلما كانا يتحدثان عنه، فقد كان السامانى الأكبر عدواً لهذه الشائعة. فقد سمع أن هذا البوذا المزعوم كان زاهداً فيما سبق، وأنه عاش في الغابات، ثم عاد إلى حياة الترف، وإلى ملذات الدنيا، ولهذا لم يكن يؤيد هذا الجوتاما.

وذات مرة قال جوفيندا لصديقه:

"سيد هارتا، لقد كنت اليوم في القرية، ودعاني أحد البراهمة لدخول بيته، وفي البيت كان هناك ابن أحد البراهمة قادماً من ماجاذا. وقد شاهد بوذا بعينيه، واستمع إليه وهو يعظ. والحق إنني ملئت شوقاً وفكرت: حبذا لو عشت أنا وسيد هارتا لنرى ذلك اليوم الذي نستطيع فيه الاستماع إلى التعاليم من شفتي "الكامل". صديقي ألن نذهب نحن أيضاً إلى هناك لنستمع إلى التعاليم من شفتي بوذا؟".

فقال سيد هارتا: "ظننت دائماً أن جوفيندا سيبقى مع السامانا.. وكنت أعتقد دائماً أن هدفه هو أن يبلغ ستين أو سبعين سنة من عمره وهو يمارس الفنون والتمارين التي يلقنها السامانا. ولكن ما أقل معرفتي بجوفيندا.. ما أقل معرفتي بما

يدور في قلبه! والآن تريد يا صديقي أن تسلك طريقاً جديداً.. وأن تمضي فيه لتستمع إلى تعاليم بوذا".

قال جوفيندا.. "إنه ليسرك أن تسخر مني. لا بأس عليك إن فعلت يا سيد هارتا، ألا تشعر أنت أيضاً بشوق، برغبة في الاستماع إلى تلك التعاليم؟ ألم تقل لي ذات مرة إنني لن أمضي في طريق السامانا أبعد من ذلك؟".

وهنا أطلق سيد هارتا ضحكة امتزجت فيها ظلال الأسى وظلال السخرية وقال: "لقد أحسنت القول ياجوفيندا، وأحسنت التذكر. ولكن ينبغي أن تتذكر أيضاً ما أخبرتك به، وهو أنني قد أصبحت قليل الثقة بالتعاليم والعلم، وأنني قليل الإيمان بالكلمات التي تأتي إلينا من المعلمين. ولكن حسن يا صديقي.. أنا على استعداد للاستماع إلى التعاليم الجديدة، وإن كنت أعتقد في قرارة نفسي أننا قد تذوقنا فعلاً أفضل ثمارها".

فأجاب جوفيندا: "يسرني أنك وافقت. ولكن أخبرني.. كيف يمكن أن تفضي إلينا تعاليم "جوتاما" بأنفس ثمارها قبل أن نصغي إليها؟".

قال سيد هارتا: "دعنا نستمتع بهذه الثمرة يا جوفيندا انتظاراً لمزيد من الثمار.. هذه الثمرة التي ندين بها لجوتاما فعلاً تكمن في هذه الحقيقة، وهي أنه قد أغرانا بالانفصال عن

الساماناً. أما إن كان هناك ثمار أخرى أفضل، فدعنا ننتظر صابرين لنرى.". وفي ذلك اليوم نفسه أبلغ سيد هارتا كبير الساماناً بعزمه على الرحيل.. وقد أفضى إلى الرجل العجوز بهذا القرار في أدب وتواضع يليقان بالشبان الصغار التلاميذ.. بيد أن الرجل العجوز أغضبه أن كلاً من الشابين يريد أن يتركه، فرفع صوته وأنبهما بشدة..

وارتاع جوفيندا. غير أن سيد هارتا مال بشفتيه على أذن جوفيندا وهمس قائلاً: الآن سأظهر الشيخ العجوز على أنني تعلمت منه شيئاً".

ووقف على مقربة من الساماني وقد ركّز ذهنه، ونظر في عيني الشيخ العجوز، وقيده بنظراته وأخمد مقاومته، وأسكته، وتغلب على إرادته، وأمره صامتاً أن يفعل ما يشاء منه. وأخلد العجوز إلى الصمت، وانسدلت على عينيه غشاوة، وشُلت إرادته، وتدلت ذراعاه، وأصبح بلا حول ولا قوة تحت سحر سيد هارتا.. لقد استولت أفكار سيد هارتا على أفكار الساماني فكان عليه أن يفعل ما يؤمر به. وهكذا انحنى الرجل العجوز عدة مرات، ومنح بركاته، وتمتم تمنياته برحلة طيبة. فشكره الشابان على تمنياته الطيبة.. وبادلاه الانحناءة، ثمّ شرعا في الرحيل.. وفي الطريق قال جوفيندا: "لقد تعلمت يا سيد هارتا من

الساماانا أكثر مما ظننت. فمن العسير غاية العسر، أن تقوم بتنويم ساماني عجوز. والحق أنك لو مكثت هناك لتعلمت سريعاً كيف تمشي على الماء..".

وقال سيد هارتا "ليست بي رغبة للسير على الماء.. دع شيوخ الساماانا يرضون أنفسهم بأمثال تلك الحيل"..

الفصل الثالث

جوتاما

في قرية "سافاني"، كان كل طفل يعرف اسم "بوذا" الجليل، وكان كل بيت على استعداد لملء جفنات الحسنات لأتباع "جوتاما" المتسولين في صمت. وعلى مقربة من القرية، كان مقر "جوتاما" المفضل هو بستان "جيتافانا" الذي أهداه إليه وإلى أتباعه التاجر الثري أناثا بيندیكا، وكان نصيراً كبيراً للمستنير.

وكان الشابان الزاهدان قد أحيلا في بحثهما عن مقر "جوتاما" إلى هذا الحي بفضل الحكايا والإجابات التي تلقياها على أسئلتهما.

وعند وصولهما إلى "سافاني"، قدم إليهما الطعام فوراً عند أول بيت وقفا أمام بابه يستجديان في صمت.. فتقاسما الطعام، وسأل "سيد هارتا" السيدة التي قدمته إليهما: "أيتها السيدة

الطيبة، إننا نود أن نعرف أين يقيم بوذا الجليل، فنحن اثنان من السامانا أقبلنا من الغابة لنرى "الكامل" ونصغي إلى تعاليمه صادرة من شفتيه هو نفسه".

فقالت المرأة: "لقد جئتما إلى المكان الصحيح.. أيها السامانيان القادمان من الغابة. إن المستنير يقطن في جيتافانا، في حديقة أناثا بينديكا. وتستطيعان قضاء الليل هناك أيها المهاجران، فهناك متسع للأفواج التي تتدفق للاستماع إلى التعاليم من شفتيه".

وتهلل وجه جوفيندا وقال مسروراً: "آه، إذن فقد بلغنا غايتنا، وانتهت رحلتنا. ولكن أخبرينا ـ يا أم الحجيج ـ هل تعرفين بوذا؟ هل رأيته بعينيك هاتين؟"

فقالت المرأة: "لقد رأيت المستنير مراراً. وما أكثر الأيام التي أبصرته فيها يتجول في الشوارع صامتاً في عباءته الصفراء باسطاً جفنة الحسنات عند أبواب المنازل، ليعود بها مليئة".

وأنصت جوفيندا مبهوراً. فأراد أن يوجه أسئلة أخرى كثيرة، وأن يسمع الكثير، غير أن سيد هارتا ذكره بأن الوقت قد حان للرحيل. فشكرا المرأة، وانطلقا. ولم تدع الحاجة إلى الاستفسار عن الطريق، فقد كان هناك عدد من الحجاج والرهبان من أتباع "جوتاما"، في طريقهم إلى جيستافانا. وعندما

وصلا بعد هبوط الليل، استمر وصول الأفواج الجديدة، فانبعثت جلبة من الأصوات المتسائلة التي تطلب المأوى وتحصل عليه. وسرعان ما عشر السامانيان اللذان تعودا حياة الغابة ــ على المأوى، فمكثا هناك حتى الصباح..

ومنذ شروق الشمس، أدهشتهما رؤية العدد الكبير من المؤمنين والفضوليين الذين قضوا الليل هناك. وكان الرهبان في أرديتهم الصفراء يذرعون ممرات الأيكة البديعة، أو يجلسون هنا وهناك تحت الأشجار، غارقين في التأمل، أو مشتبكين في حديث محتدم. وكانت الحدائق الوارفة الظلال أشبه بمدينة تعج بالنحل. وما لبث معظم الرهبان أن غادروا المكان ــ يحملون جفناتهم للحصول على طعام وجبة الظهيرة، وهي وجبتهم الوحيدة طيلة اليوم. وحتى بوذا نفسه ذهب يستجدي في الصباح.

ورآه سيد هارتا، فتعرف عليه فوراً، وكأنما أشار عليه إله.. رآه حاملاً جفنته، مبارحاً المكان في هدوء، رجلاً متواضعاً يرتدي قلنسوة صفراء.

قال سيد هارتا في رفق لجوفيندا: "انظر.. ها هو ذا بوذا"!

ونظر جوفيندا متفحصاً الناسك ذا القلنسوة الصفراء الذي لا يمكن تمييزه بأي شيء عن مئات النساك الآخرين. ومع ذلك فقد تعرف عليه جوفيندا في الحال.. أجل ها هوذا.. وها هما يتبعانه ويراقبانه.

ومضى بوذا هادئاً في سبيله، مستغرقاً في خواطره، ولم تكن ملامحه الوديعة سعيدة أو حزينة، بل كان يبدو عليه أنه يبتسم في لطف من الداخل. وبابتسامة مستسرة لا تختلف عن ابتسامة طفل موفور الصحة، مضى في سيره هادئاً وادعاً. كان يرتدي عباءته، ويمشي كما يمشي النساك الآخرون تماماً.. غير أن محياه، ومشيته، ونظراته الخفيضة الوادعة، ويده المدلاة المسالمة، وكل أصبع في راحته يتحدث عن السلام والاكتمال، لا يسعى إلى شيء، ولا يحاكي شيئاً، وإنما يعكس هدوءاً متصلاً، ونوراً لا يخفت، وسلاماً لا سبيل إلى النيل منه.

وهكذا أخذ جوتاما يتجول في المدينة استجداءً للحسنات. ولم يتعرف عليه السامانيان إلاّ بهيئته التي يشع منها السلام الكامل، وبشكله الذي يتسم بالسكون، فلا أثر فيه للسعي أو الإرادة أو التظاهر أو المجهود ـ نور وسلام فحسب.

قال جوفيندا: "اليوم سوف نستمع إلى التعاليم من شفتيه". فلم يرد عليه "سيد هارتا"، ذلك أنه لم يكن متلهفاً على سماع التعاليم، ولم يخطر له على بال أنه سيتعلم منها شيئاً جديداً. لقد استمع هو وجوفيندا إلى جوهر تعاليم بوذا، وإن كان ذلك عن روايات غير مباشرة، ولكنه نظر متمعناً إلى رأس جوتاما، إلى منكبيه، وإلى قدميه، وإلى يده الساكنة المدلاة إلى جانبه،

وخيل إليه أن في كل مفصل من أنامله تستقر المعرفة.. إنها تتحدث، تتنفس، تشع حقيقة.. إن هذا الرجل، هذا البوذا، رجل مقدس حقاً حتى أطراف أصابعه، وسيد هارتا لم يبجّل في حياته كلها رجلاً مثل هذا التبجيل، ولم يحب رجلاً مثل هذا الحب.

وسار الاثنان في أعقاب بوذا حتى دخل المدينة، وعادا منها في سكون.

وكانا ينويان الصوم عن الطعام ذلك اليوم. وشاهدا جوتاما وهو يعود، وشاهداه وهو يتناول وجبته في حلقة من أتباعه. وكان ما أكله لا يكفي عصفوراً. ثم شاهداه، وهو ينسحب إلى ظلال شجرة المانجو.

وفي المساء، عندما تلطفت حدة الحرارة، واجتمع كل من في المعسكر وأرهف أذنيه، سمعا بوذا وهو يلقي موعظته، وتناهى إليهما صوته.. وكان هذا أيضاً كاملاً، هادئاً مفعماً بالسلام. كان "جوتاما" يتحدث عن العذاب، وعن أصل الشقاء، وطريقة التحرر منه. كانت الحياة ألما، وكان العالم مليئاً بالشقاء، بيد أن السبيل إلى التحرر من الشقاء قد تم العثور عليه. والخلاص ينتظر أولئك الذين يتبعون سبيل بوذا.

وكان المستنير يتحدث بصوت ناعم ولكنه حازم، وكان يعلم النقاط الأربع الرئيسية، ويعلم الطريق ذا الشعب الثمانية،

وفي صبر، كان يغطي منهج التعليم المعتاد بالأمثلة والتكرار. وكان صوته يصل إلى مستمعيه واضحاً صافياً كالنور، كنجم سابح في السماء.

فلما انتهى بوذا من موعظته، وكان الليل قد ألقى مراسيه ـ تقدم كثير من الحجاج مطالبين بقبولهم في صفوف الجماعة، فأعلن بوذا قبولهم قائلاً: "لقد أصغيتم جيداً إلى التعاليم فانضموا إلينا إذن، وخذوا نصيبكم من السعادة، وضعوا حدّاً للشقاء".

وحتى جوفيندا ـ ذلك الشاب الخجول ـ تقدم قائلاً: "وأريد أنا أيضاً أن أعلن ولائي للمستنير وتعاليمه".

وطلب الانضمام إلى الجماعة، فأجيب إلى طلبه.

وما أن انسحب "بوذا" لقضاء ليلته حتى التفت جوفيندا إلى "سيد هارتا" قائلاً في لهفة: "ليس لي أن ألومك يا سيد هارتا. لقد استمعنا معاً إلى المستنير، وأصغينا معاً إلى تعاليمه.

"أما جوفيندا فقد استمع إلى التعاليم وقبلها، ولكن أنت يا صديقي العزيز، ألا تريد أن تطأ سبيل الخلاص أنت أيضاً هل ستتأخر، وهل مازلت تنتظر؟".

وعندما سمع "سيد هارتا" كلمات جوفيندا استيقظ كأنما كان نائماً. فنظر طويلاً إلى وجه جوفيندا، ثم تحدث متئداً وقد خلا صوته من كل سخرية:

"جوفيندا صديقي، لقد خطوت خطوتك، واخترت طريقك. لقد كنت دائماً صديقي يا جوفيندا، وكنت تخطو دائماً خلفي. وكثيراً ما فكرت: أيتخذ جوفيندا خطوة دوني نابعة من اقتناعه الخاص؟ وأنت الآن رجل، فقد اخترت سبيلك. فهلا مضيت فيه إلى النهاية يا صديقي لعلك تجد الخلاص!".

ولم يستوعب جوفيندا هذا الكلام. فأعاد سؤاله نافد الصبر: "تكلم، يا صديقي العزيز، قل إنك لا تستطيع إلا أن تقسم على الولاء لبوذا".

ووضع سيد هارتا كفه على كتف جوفيندا: "لقد سمعتني أباركك يا جوفيندا.. وها أنذا أردد قولي. فلتمض في الطريق إلى نهايته، وليكن الخلاص من نصيبك".

وفي هذه اللحظة أدرك جوفيندا أن صديقه يفترق عنه فطفق يبكي، وصاح: "سيد هارتا!".

وتحدث إليه سيد هارتا متلطفاً: "لا تنسَ يا جوفيندا أنك تنتمي الآن إلى رجال بوذا المقدسين. وقد هجرت بيتك وأهلك ونبذت أصلك وما تملك، بل تخليت عن إرادتك ونزلت عن الصداقة.. هذا ما تدعو إليه التعاليم وهذه هي إرادة المستنير. وغدا سوف أفترق عنك يا جوفيندا"..

وظل الصديقان يتسكعان في الغابة وقتاً طويلاً. ورقدا طويلاً ولكنهما لم يتمكنا من النوم، وألح جوفيندا على صديقه مرة بعد أخرى أن يصارحه بما دفعه إلى الامتناع عن أتباع تعاليم بوذا، وأي عيب يراه فيها.. بيد أن سيد هارتا كان يصرفه في كل مرة: "اطمئن يا جوفيندا، إن تعاليم المستنير سليمة جداً فكيف أجد فيها ما يعيبها؟".

وفي الصباح الباكر ذهب واحد من أتباع بوذا، واحد من أكبر نساكه سنا ـ إلى الحديقة، ودعا إليه كل الأشخاص الجدد الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم لكي يخلع عليهم العباءة الصفراء، ولكي يلقنهم التعاليم الأولى وواجبات الطريقة، ولم يلبث جوفيندا أن انصرف عنهم، فعانق رفيق صباه، ثم ارتدى عباءة الناسك.

وأخذ سيد هارتا يتجول خلال الأيكة غارقاً في عميق أفكاره..

وهناك التقى بجوتاما، المستنير، وما أن حياه باحترام، وشاهد على وجه بوذا تعبيراً زاخراً بالطيبة والسلام، حتى استجمع الشاب شجاعته، واستأذن المستنير أن يتحدث إليه، فأطرق المستنير برأسه صامتاً علامة على الموافقة.

قال سيد هارتا "بالأمس، كان من دواعي سروري ـ أيها المستنير ـ أن أستمع إلى تعاليمك المدهشة.. وكنت قد أتيت من بعيد أنا وصديقي للاستماع إليك، والآن سيبقى صديقي معك، فقد أقسم يمين الولاء لك. أما أنا فأواصل رحلتي من جديد".

قال المستنير في أدب: "لك ما تشاء".

وواصل سيد هارتا حديثه قائلاً: "ربما كان حديثي أجرأ من اللازم، ولكنني لا أريد أن أترك المستنير دون أن أنقل إليه أفكاري بأمانة. فهلا استمع إليّ المستنير فترة أطول قليلاً".

وأطرق بوذا موافقاً في صمت.

قال سيد هارتا: "أيها المستنير، أعجبتني تعاليمك في شيء واحد فوق كل شيء.. كل شيء كامل الوضوح.. تدعمه البراهين، وأنت تصور العالم بوصفه سلسلة كاملة لا انقطاع فيها.. سلسلة أبدية تترابط بالعلة والمعلول. إن العالم لم يُعْرض قط بمثل هذا الوضوح، ولم تتم البرهنة عليه أبداً بمثل هذه البراهين التي لا تدحض. وليس من شك أن قلب كل برهمي ستزداد سرعة دقاته عندما ينظر إلى العالم من خلال تعاليمك، فيجده متلاحماً تلاحماً تاماً، دون أية ثغرة، صافياً كالبلور، لا يعتمد على المصادفة، ولا يعتمد على الآلهة. وسواء أكان ذلك خيراً أم شراً، وسواء أكانت الحياة في ذاتها ألماً أم لذة، وسواء أكان

ذلك غير يقيني ـ أي حتى إن كان الأمر كذلك، فليس مهماً ـ ولكن وحدة العالم وتلاحم الأحداث جميعاً، واشتمال كل كبيرة وصغيرة في تيار واحد، في قانون واحد، في قانون واحد للعلية، للصيرورة والفناء: هذا كله يسطع واضحاً من تعاليمك السامية، أيها ـ الكامل، غير أن هذه الوحدة وهذا السياق المنطقي للأشياء جميعاً يتحطم ـ وفقاً لتعاليمك ـ في مكان واحد.. فمن خلال فجوة صغيرة يندفع إلى عالم الوحدة شيء غريب ـ شيء جديد.. شيء لم يكن هناك من قبل، ولا سبيل إلى إثباته أو البرهنة عليه. أعني مذهبك في الارتفاع فوق العالم، في الخلاص فبهذه الفجوة الصغيرة، ومن خلال هذا الصدع الضيق، يتحطم قانون العالم الأبدي الفريد مرة أخرى.. سامحني إن أنا أثرت هذا الاعتراض..".

واستمع جوتاما في هدوء وبلا حراك. والآن جاء دور "الكامل" ليتحدث في صوت عطوف مهذب صاف: "لقد أنصت جيداً إلى التعاليم يا ابن البرهمي. ومما يحسب لك أنك فكرت فيها بمثل هذا العمق.. وقد وجدت فيها عيباً، فكر في ذلك مرة أخرى، ودعني أحذرك أنت المتعطش إلى المعرفة ـ من دغل الآراء، وتضارب الألفاظ. الآراء لا تعني شيئاً، قد تكون جميلة أو قبيحة، ذكية أو حمقاء.. وكل إنسان يستطيع أن يحتضنها، أو

يرفضها. والتعاليم التي استمعت إليها ليست رأيي على كل حال، وليس هدفها أن تفسر العالم لأولئك المتعطشين إلى المعرفة.. إن هدفها جد مختلف، هدفها هو الخلاص من الألم.. هذا هو ما يبشر به جوتاما ولا شيء سواه". وقال الشاب: "لا تغضب مني أيها المستنير. فأنا لم أتحدث إليك على هذا النحو لأتشاجر معك حول الألفاظ. أنت على حق عندما تقول إن الآراء لا تعني إلا قليلاً، ولكن هل لي أن أقول شيئاً آخر، أنا لا أشك فيك لحظة واحدة، ولا أشك في أنك بوذا لحظة واحدة، وفي أنك بلغت الهدف الأسمى الذي تجاهد الآلاف المؤلفة من البراهمة وأبناء البراهمة للوصول إليه.

"ولقد فعلت ذلك ببحثك الخاص وطريقتك الخاصة من خلال الفكر والتأمل والمعرفة والاستنارة.. فأنت لم تعلم شيئاً عن طريق التعاليم ـ وهذا ما أعتقده ـ يا أيها المستنير ـ إن أحداً لا يجد الخلاص عن طريق التعاليم، ولا تستطيع أيها المستنير أن تنقل إلى أحد بوساطة الألفاظ والتعاليم ـ ما حدث لك ساعة الاستنارة.. إن تعاليم المستنير بوذا تشتمل على الكثير: كيف يعيش المرء حياة صالحة، وكيف يتجنب الشر، ولكن هناك شيء واحد لا تحتويه هذه التعاليم الواضحة الجلية.. إنها لا تضم سر ما عاناه المستنير بنفسه ـ هو وحده بين مئات الألوف ـ هذا هو

ما فكرت فيه وأدركته عندما أصغيت إلى تعاليمك، وهذا هو ما يدعوني إلى المضي في طريقي ـ لا بحثاً عن مذهب آخر أفضل. فأنا أعلم أنه لا وجود لهذا المذهب ـ ولكن هجراناً لكل المذاهب ولكل المعلمين، حتى أبلغ هدفي وحدي، أو أموت دونه. بيد أنني سأتذكر دائماً هذا اليوم ـ أيها المستنير ـ وهذه الساعة التي وقعت فيها عيناي على رجل مقدس".

وكانت عينا بوذا خفيضتين، ووجهه الذي لا يسبر غوره يعبر عن الاتزان التام. قال المستنير متمهلاً: "أرجو ألا تكون مخطئاً في استنتاجك.. فليحالفك التوفيق في بلوغ هدفك. ولكن قل لي، هل رأيت جماعتي من الرجال المقدسين، إخواني الكثيرين الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم؟ أو تعتقد أيها السامانى القادم من بعيد أنه من الأفضل لهؤلاء جميعاً أن يتنكروا للتعاليم، وأن يرتدوا لحياة العالم والشهوات؟ فصاح سيد هارتا: "إن هذه الفكرة لم تخطر قط على بالي. فليتبعوا جميعاً تلك التعاليم وليبلغوا هدفهم. فليس من حقي أن أحكم على حياة الآخرين. وما عليّ إلا أن أحكم لنفسي. يجب علي أن أختار وأرفض. ونحن السامانا نسعى إلى الانعتاق من "الذات" أيها المستنير، ولو كنت واحداً من أتباعك، لخشيت أن يكون ذلك على السطح فحسب، وإني أخدع نفسي عندما أظن أنني في

سلام مع العالم، وأنني اكتسبت الخلاص، وتكون الحقيقة هي أن "الذات" مستمرة في الحياة والنماء، إذ أكون قد تحولت إلى تعاليمك وإلى ولائي وحبي لك ولطائفة النساك". وبنصف ابتسامة، وفي إشراق ومودة لا يعكر صفاءهما شيء، نظر بوذا في ثبات إلى الشاب الغريب، وصرفه بحركة لا تكاد ترى..

وقال المستنير: "أنت ذكي أيها السامامي، وأنت تعرف كيف تتحدث بذكاء يا صديقي. فلتأخذ حذرك ضد الذكاء المفرط.."

ومضى بوذا مبتعداً، غير أن نظرته ونصف ابتسامته بقيتا مطبوعتين في ذاكرة سيد هارتا إلى الأبد، وقال في نفسه إنني لم أشاهد في حياتي أبداً شخصاً ينظر ويبتسم، يجلس ويمشي، مثل هذا الرجل. وأنني لأحب أنا أيضاً أن أنظر وأبتسم، وأجلس وأمشي مثل هذا، متحرراً، نبيلاً، رابط الجأش، صريحاً، طفولياً، غامضاً في وقت معاً. فلا ينظر إنسان ويمشي على هذا النحو إلا إذا كان قد انتصر على "ذاته"، وأنا أيضاً سأنتصر على "ذاتي".

وقال سيد هارتا في نفسه: لقد رأيت رجلاً واحداً.. رجلاً واحداً فحسب لا بد أن أغض من طرفي أمامه، ولن أغض من طرفي إزاء أي إنسان آخر، ولن تجتذبني تعاليم أخرى ما دامت تعاليم هذا الرجل لم تفعل ذلك..

وقال سيد هارتا في نفسه: إن بوذا قد سلبني.. لقد سلبني ومع ذلك أعطاني شيئاً أكثر قيمة. سلبني صديقي الذي كان يؤمن بي وهو الآن يؤمن به.. لقد كان ظلي وهو الآن ظل جوتاما.. ولكنه أعطاني سيد هارتا، أعطاني نفسي..

الفصل الرابع

اليقظة

عندما غادر "سيد هارتا" البستان الذي بقي فيه بوذا الكامل، وبقي فيه جوفيندا، أحس أنه ترك أيضاً حياته السابقة وراء ظهره في البستان.. وكانت رأسه مليئة بهذه الفكرة وهو يمضي متثاقلاً في طريقه.. كان يفكر ملياً حتى استولى عليه هذا الشعور من جميع أقطاره، وبلغ نقطة أدرك عندها الأسباب ذلك أن إدراك الأسباب معناه أن يفكر، على ما يبدو له، ومن خلال التفكير وحده تتحول المشاعر إلى معرفة، فلا يكون نصيبها الضياع، بل تصبح شيئاً واقعاً، وتبدأ في النضج.

كان سيد هارتا يفكر تفكيراً عميقاً وهو يمضي في سبيله.. فأدرك أنه لم يعد شاباً، بل أصبح الآن رجلاً، وأدرك أن شيئاً ما قد بارحه كالجلد القديم الذي يخلعه الثعبان.. شيئاً لم يعد فيه الآن، شيئاً صاحبه في شبابه وكان جزءاً منه: هذا

الشيء هو أن يكون له معلمون، وأن يستمع إلى تعاليمهم. لقد ترك الآن آخر معلم صادفه، حتى وإن كان هو ـ أعظم وأحكم مدرس، أقدسهم جميعاً.. بوذا.. كان لابد أن يتركه فهو لا يستطيع أن يقبل تعاليمه..

ومضى المفكر في سبيله متمهلاً، وتساءل: ما هذا الذي كنت تريد أن تتعلمه من التعاليم والمعلمين؟. ومع أنهم قد علموك الكثير، فما ذلك الشيء الذي لم يستطيعوا تعليمه إياك؟ وهداه تفكيره إلى أنها "الذات". هي شخصية وطبيعة ما أردت أن أتعلمه. لقد أردت أن أخلص نفسي من "الذات"، وأن أتغلب عليها، ولكنني لم أستطع، كل ما استطعته هو أن أخدع نفسي، وأن أهرب منها، وأن أتخفى عنها. حقاً إن شيئاً في هذا العالم لم يشغل أفكاري كما شغلته "الذات"، هذا اللغز.. لغز أنني أحيا، وأنني واحد ومنفصل ومختلف عن كل شيء سواي، إنني سيد هارتا. وما أعرفه عن نفسي، عن سيد هارتا، أقل مما أعرفه عن أي شيء آخر في العالم.

وفجأة تسمر المفكر الذي كان ماضياً ببطء في طريقه، وقد أمسكت بتلابيبه هذه الفكرة.. ومنها انبثقت على الفور فكرة أخرى: إن السبب الذي جعلني جاهلاً بنفسي، السبب الذي أبقى سيد هارتا غريباً مجهولاً من نفسي، يرجع إلى شيء

واحد.. إلى شيء واحد فحسب ـ هو أنني كنت خائفاً من نفسي، كنت أهرب من نفسي.. كنت أبحث عن "براهما"، عن "أتمان"، وأردت أن أحطم نفسي، وأن أهرب منها، حتى أجد في الأعماق المجهولة نواة الأشياء جميعاً، أتمان، الحياة، الإلهي، المطلق، ولكنني بصنيعي ذاك، فقدت نفسي في الطريق. وصَعّد سيد هارتا بصره، وتلفت حواليه، وتسللت ابتسامة على وجهه، وشاع في كيانه مباشرة شعور قوى باليقظة من حلم طويل. فواصل سيره مسرعاً هذه المرة كرجل يعرف ما ينبغي عليه أن يصنع..

أجل.. لن أحاول بعد الآن الهروب من سيد هارتا.. وتنفس نفساً عميقاً.. لن أكرس أفكاري بعد اليوم لأتمان، أو لأحزان العالم، ولن أشوه نفسي أو أحطمها بحثاً عن سر تحت الحطام. لن أدرس بعد اليوم يوجا ـ فيدا، أو أتارفا ـ فيدا، أو الزهد، أو أية تعاليم أخرى.. ـ سأتعلم من نفسي، سأكون تلميذ نفسي.. سأتعلم من نفسي سر سيد هارتا.

وتلفت حوله كأنما يرى العالم لأول مرة ـ كانت الدنيا جميلة، غريبة غامضة. هنا تشيع الزرقة، وهنا تنشر الصفرة.. وهنا تموج الخضرة.. وهنا السماء والنهر، الغابات والجبال، كلها جميلة، غامضة، مسحورة، وفي وسط هذا كله كان هو سيد هارتا، المستيقظ، في طريقه إلى نفسه.. كل هذا، كل

هذه الصفرة والزرقة. النهر والغابة.. تمر للمرة الأولى أمام عيني سيد هارتا. إنها لم تعد سحر الوهم "مارا"، ولم تعد حجب المايا "الخداع والزيف".. إنها لم تعد خالية من المعنى أو مصادفة التنوعات التي تنسج مظاهر العالم والتي يزدريها البراهمة ــ المتعمقون في الفكر، الذين يحتقرون التنوع، ويلتمسون الوحدة، النهر هو النهر، وإذا كان "الواحد" و"الإلهي" في سيد هارتا هو الذي يعيش سراً في الزرقة والنهر، فإن الفن الإلهي والقصد الإلهي هو الذي قضى بأن يكون هناك أصفر وأزرق، سماء وغابة ــ وأن يكون هنا سيد هارتا. إن المعنى والحقيقة لا يحتجبان في مكان ما وراء الأشياء.. وإنما هما في الأشياء، فيها جميعاً.

كم كنت أصم وغبياً، هكذا قال وهو يمضي مسرعاً: عندما يقرأ أحد أي شيء يريد أن يدرسه، فإنه لا يحتقر الحروف وعلامات التنقيط فيدعوها وهما ومصادفة وأصدافاً فارغة، ولكنه يقرأها ويدرسها ويحبها حرفاً حرفاً. أما أنا الذي يريد أن يقرأ كتاب الوجود، وكتاب طبيعتي أنا الخاصة.. فأدعي احتقار الحروف والعلامات، وأسمى عالم الظواهر وهما، وأدعو عيني ولساني، صدفة، والآن انتهى كل شيء، فقد استيقظت، لقد استيقظت حقاً، ولم أولد إلا اليوم فحسب.

ولكن.. بينما كانت هذه الخواطر تعبر ذهن سيد هارتا، توقف فجأة وكأنما اعترض طريقه ثعبان..

وفجأة أيضاً اتضحت له هذه الفكرة: إنه ينبغي عليه وهو الذي استيقظ في الحقيقة، أو وُلِد من جديد ـ أن يبدأ حياته بداية جديدة تماماً. وعندما ترك بستان جيتافانا ذلك الصباح، بستان المستنير.. بعد أن استيقظ فعلاً، اتجهت نيته، وكان هذا هو الطريق الطبيعي بالنسبة إليه بعد سنوات الزهد ـ إلى العودة إلى بيته وإلى أبيه ـ ولكنه الآن في هذه ـ اللحظة التي يقف فيها جامداً كأنما يعترض سبيله ثعبان، خطرت له هذه الفكرة أيضاً: إنني لم أعد كما كنت، لم أعد زاهداً أو كاهناً أو برهمياً، فماذا سأصنع في البيت مع أبي؟ أدرس؟ أقدم القرابين؟ أمارس التأمل؟ لقد انتهى هذا كله بالنسبة إليَّ الآن.

وقف سيد هارتا ساكناً. وأخذته رعشة ثلجية لم تستمر سوى لحظة. وانتابته رجفة داخلية، كأنه حيوان صغير أو عصفور أو أرنب بري، عندما أدرك كم هو وحيد، لقد عاش بلا مأوى أعواماً طوالاً، ولكنه لم يشعر بمثل ما يشعر به الآن.. كان فيما سبق عندما يستغرقه التأمل العميق، عندما كان ابن أبيه، كان برهمياً ذا مكانة رفيعة. رجلاً من رجال الدين ـ أما الآن فلم يعد إلا سيد هارتا فحسب.. المستيقظ، ولا شيء غير

ذلك. وأخذ أنفاساً عميقة، فارتعشت أطرافه لحظة. إن أحداً لا يعاني من الوحدة ما يعانيه. لم يكن نبيلاً ينتمي إلى أية أرستقراطية؛ أو صانعاً ينتمي إلى أية طائفة من الصناع يلوذ بها ويشاطرها حياتها ولغتها؛ ولم يكن برهمياً يشارك في حياة البراهمة، أو زاهداً ينتسب إلى السامانا.. بل إن أكثر النساك انعزالاً في الغابات، لم يكن فرداً وحيداً لأنه ينتمي أيضاً إلى فئة من الناس. لقد أصبح جوفيندا ناسكاً، وآلاف من النساك قد صاروا إخوانه يرتدون نفس العباءة ويشاطرونه نفس المعتقدات ويتحدثون لغته. أما هو "سيد هارتا"، فإلى من ينتمي؟ ومن ذا الذي يشاطره حياته؟ ولغته من تلك التي يتحدثها؟.

وفي هذه اللحظة، عندما أخذت الدنيا تذوب من حوله، وعندما وقف وحيداً كالنجم في السماء، طغى عليه شعور من يأس ثلجي، ولكنه كان نفسه في حزم أكثر من أي وقت مضى. كانت هذه آخر رعدة صاحبت يقظته.. إنها آلام الميلاد الأخيرة.. واستأنف سيره على الفور وبدأ يمشي سريعاً نافد الصبر..غير متجه إلى بيته، أو متجه إلى أبيه.. أو ناظراً إلى الوراء..

الفصل الخامس

كماله

كان سيد هارتا يتعلم شيئاً جديداً في كل خطوة يخطوها في طريقه، ذلك أن العالم قد تحول في ناظريه، وكان به مبهوراً. رأى الشمس تشرق فوق الغابة والجبال، وتغرب فوق الشاطئ النخيلي البعيد. وفي الليل كان يرى النجوم في السماء، والقمر الذي يشبه المنجل طافياً كالزورق فوق ثبج الموج الأزرق..

ورأى الأشجار والنجوم والحيوان، والسحب وأقواس قزح، والصخور، والأعشاب والأزهار والجداول والأنهار وألق الندى على الآكام في الصباح، والجبال النائية زرقاء شاحبة. وكانت الطيور تغرد، والنحل يطن، والريح تهب واهنة خلال حقول الأرز.. كان هذا كله مصطبغاً بالألوان، وفي آلاف الأشكال المختلفة هناك دائماً وأبداً.. ولقد أشرقت الشمس، وبزغ القمر باستمرار.. كما تدفقت الأنهار، وطن النحل ـ بيد أن هذا كله لم يكن في الأيام الخالية شيئاً بالنسبة لسيد هارتا.. لم يكن أكثر من

حجاب وهمي عابر يمر أمام عينيه، فينظر إليه مرتاباً، ويحكم بتجاهله واستبعاده من الأفكار لأنه ليس حقيقياً، ولأن الحقيقة تستقر في الجانب الآخر من المرئي. أما الآن، فإن عينيه تتلبثان عند هذا الجانب، لقد شاهد المرئي وأدركه، وبحث عن مكانه في هذا العالم. إنه لم يبحث عن الحقيقة، وهدفه لا يوجد على أي جانب آخر. لقد كان العالم جميلاً منظوراً إليه على هذا النحو دون بحث.. كان بسيطاً غاية البساطة، بل طفولياً. وكان القمر والنجوم فاتنة، والغدير والشاطئ والغابة والصخرة، والعنزة، والجعران الذهبي، والزهرة، والفراشة.. كل هذا بديع. وكم كان جميلاً وممتعاً أن يمضي في العالم على هذا النحو كالطفل، مستيقظاً، لا يعنيه إلا المباشر دون أي ارتياب. وهناك في مكان آخر كانت الشمس تحترق في عنفوان، وفي مكان ثان كان البرد يسري في ظلال الغابة، وفي مكان ثالث كان يوجد اليقطين والموز، وكانت الأيام والليالي قصاراً، وكل ساعة تمر شراعاً كشراع فوق لجة البحر، تحت شراع سفينة حافلة بالكنوز مترعة بالمتعة. وشاهد سيد هارتا جماعة من القردة في أعماق الغابة، تتواثب عالياً بين الأغصان، وتناهت إلى أذنيه صرخاتها الوحشية اللهيفة. ورأى سيد هارتا حملاً يسير في أعقاب شاة وزوجها. وفي بحيرة من السمار، شاهد أسماك البوري

تطارد صيدها لوجبة المساء.. وثمة أسراب من الأسماك الصغيرة ترفُّ وتتألق، وتبتعد في لهفة عن السمكة الكبيرة. وانعكست القوة والرغبة في دوامات الماء التي تحركها الصائدة المهتاجة. كان هذا كله موجوداً دائماً وأبداً، ولكنه لم يشاهده قط، لم يكن حاضراً على الاطلاق. أما الآن فهو حاضر، وهو ينتمي إلى هذا كله. ومن خلال عينيه رأى الأنوار والظلال، ومن خلال عقله أدرك القمر والنجوم.

وتذكر سيد هارتا وهو سادر في طريقه تجربته كلها في حديقة جيتافانا، والتعاليم التي استمع إليها هناك من بوذا المقدس، وافتراقه من جوفيندا، ومحادثته مع الجليل. وتذكر كل كلمة قالها للجليل، وأدهشه أنه قال أشياء لم يكن يعرفها حينذاك حق المعرفة. إن ما قاله بوذا من أن حكمته وسره أمور لا سبيل إلى تعليمها، أو التعبير عنها، أو نقلها إلى الآخرين، وهي الأشياء التي عاناها في ساعة تنوير، هي نفسها الأشياء التي جعلها موضع تجربته، والتي بدأ الآن في تجربتها. لابد من أن يكتسب الخبرة بنفسه. كان يعلم منذ أمد طويل أن ذاته هي "آتمان" وأنها من نفس الطبيعة الأبدية لبراهما. ولكنه لم يجد ذاته في الحقيقة أبداً.. لأنه أراد أن يتصيدها في شبكة الأفكار. ليس الجسم هو "الذات" بكل تأكيد، وليست هي

لعبة الحواس، أو الفكر أو الذهن، وليست هي الحكمة المكتسبة، أو الفن الذي تستخلص به النتائج أو الذي ننسج به من الأفكار الموجودة فعلاً أفكاراً جديدة... كلا، إن عالم الفكر هذا ما زال على هذا الجانب ولا يؤدي إلى هدف ـ عندما يحطم المرء حواس الذات العرضية ليغذيها بالأفكار والحصافة، إن كلاً من الفكر والحواس شيء بديع، ووراءهما يحتجب المعنى الأخير، ويجدر بنا حين نستمع إليهما معاً، أن نتعامل معهما، لا أن نزدريهما، أو نغالي من شأنهما، ولكن أن ننصت باهتمام إلى الصوتين معاً. إن سيد هارتا لن يسعى إلا وراء ما يمليه عليه الصوت الداخلي، ولن يمكث إلا حيثما ينصحه الصوت، لماذا جلس جوتاما ذات مرة تحت شجرة التين في أعظم ساعاته عندما تلقى التنوير؟ لقد سمع صوتاً، صوتاً في أعماق قلبه يأمره أن يلتمس الراحة تحت هذه الشجرة ولم يكن قد لجأ إلى إهلاك الجسد أو تقديم القرابين، أو أداء طقوس التطهير والصلوات.

كان يأكل ويشرب ـ وينام ويحلم، ولكنه استمع إلى الصوت. على المرء ألا يطيع أي أمر خارجي، وإنما عليه أن يطيع الصوت وحده. وأن يكون مستعداً ـ هذا هو المطلوب، وهذا هو الضروري ولا شيء غيره.

وأثناء الليل عندما نام في كوخ من القش يملكه نوتي، رأى سيد هارتا حلماً. حلم أن جوفيندا يقف أمامه مرتدياً عباءة الناسك الصفراء. وكان جوفيندا يبدو حزيناً وسأله: "لماذا تركتني؟" وهنا عانق جوفيندا وطوقه بذراعيه. وعندما جلبه إلى صدره وهم بتقبيله، لم يعد جوفيندا، بل تحول إلى امرأة، ومن ثوب هذه المرأة برز صدر ناهد، فرقد سيد هارتا عليه ورضع منه.. وكان مذاق اللبن من هذا الصدر عذباً قوياً.. امتزج في مذاقه الرجل والمرأة، الشمس والغابة، الحيوان والزهر، وكل الثمار وكل الملذات. كان لبناً مُسكراً. وعندما استيقظ سيد هارتا، كان النهر الشاحب يتألق بجوار باب الكوخ، وفي الغابة ترددت صيحة بومة عميقة واضحة. ولما طلع النهار، طلب سيد هارتا من مضيفه ـ الملاح أن يقله عبر النهر.. فعبر به الملاح النهر فوق طوفه المصنوع من الخيزران "البامبو" وكانت صفحة الماء العريضة تتلألأ أرجوانية في ضوء الصباح..

قال لرفيقه "إنه نهر جميل".

فقال الملاح: "أجل.. إنه نهر غاية في الجمال.. وأنا أحبه أكثر من أي شيء آخر. وكثيراً ما استمعت إليه، وحدقت فيه، وكنت أتعلم منه دائماً شيئاً ما. يستطيع المرء أن يتعلم الكثير من نهر".

قال سيد هارتا وهو يهبط على الضفة الأخرى "شكراً لك أيها الرجل الطيب. وأخشى ألا تكون معي أية هدية أعطيها لك أو أي أجر. إنني بلا مأوى، ابن برهمي وساماني..".

قال الملاح: "أستطيع أن أرى ذلك، ولم أتوقع منك هدية أو أجر.. وسوف تعطيني في وقت آخر..".

فسأله سيد هارتا مداعباً: "أتظن ذلك؟".

- "بكل تأكيد.. وهذا تعلمته من النهر أيضاً.. كل شيء يعود.. وأنت أيها الساماني ــ ستعود.. والآن وداعاً.. ولتكن صداقتك هي أجري.. ولتفكر فيَّ عندما تضحي للآلهة..".

وابتسما وهما يفترقان. كان سيد هارتا سعيداً بروح الصداقة التي يتحلى بها الملاح. وخطر له وهو يبتسم أنه يشبه جوفيندا.. إن كل من ألقاه في طريقي يشبه جوفيندا.. الكل معترف بالجميل. وإن كانوا هم أنفسهم جديرين بالشكر. الكل خائفون يريدون أن يكونوا أصدقاء، أن يطيعوا ويفكروا قليلاً.. الناس أطفال..

وفي وقت الظهيرة مر بقرية. كان الأطفال يرقصون في زقاق أمام أكواخ من الطين. وكانوا يلعبون بأحجار من اليقطين وبلح البحر (نوع من المحار)، ويتصايحون ويتضاربون، ولكنهم تفرقوا هاربين خوفاً عندما شاهدوا الساماني الغريب.. وعند طرف

القرية انعطف الطريق في محاذاة غدير، وعند حافة الغدير ركعت امرأة شابة تغسل الثياب. وعندما حياها سيد هارتا، رفعت رأسها ونظرت إليه بابتسامة، حتى استطاع أن يرى بياض عينيها وهو يلمع. فطلب منها البركة كما هي عادة المسافرين.. وسألها عن مدى المسافة التي يقطعها من الطريق حتى يبلغ المدينة الكبيرة، وهنا نهضت المرأة وأقبلت نحوه وشفتاها الرطبتان تتألقان على نحو جذاب في وجهها الغض.

وتبادلت وإياه ملاحظات خفيفة، وسألته إن كان قد تناول طعامه، وهل ينام السامانا وحدهم حقاً في الغابة أثناء الليل، وبأنه لا يسمح لهم أن يصحبوا أية امرأة معهم. ثم وضعت قدمها اليسرى على قدمه اليمنى وأتت بحركة، هي الحركة التي تأتى بها امرأة حين تدعو رجلاً إلى ذلك النوع من متعة الحب الذي تسميه الكتب المقدسة "طلوع الشجرة" وأحس سيد هارتا بدمائه تشتعل، وعندما أدرك حلمه مرة أخرى في هذه اللحظة انحنى قليلاً صوب المرأة، وقبَّل صدرها. وعندما رفع رأسه رأى وجهها مبتسماً، مفعماً بالشهوة، وعينيها نصف المغمضتين تصرخان بالشوق.

كان سيد هارتا يشعر بالشوق أيضاً وبالرغبة الجنسية. ولكن لأنه لم يلامس امرأة قط، فقد تردد برهة، وإن تأهبت

يداه لاحتضانها.. في هذه اللحظة سمع صوته الداخلي، وقال له الصوت "كلا". وهنا اختفى السحر كله الذي كان على وجه المرأة الشابة الباسم، فلم يعد يرى شيئاً غير النظرة الحارة المنبعثة من امرأة شهوانية. فربت على وجنتيها في لطف، واختفى سريعاً عن المرأة التي خيب أملها في غابة البامبو. وقبل حلول مساء ذلك اليوم، وصل إلى مدينة كبيرة، وكان مسروراً لأن به رغبة تدفعه لأن يكون مع الناس. لقد عاش طويلاً في الغابات. وكان كوخ الملاح المصنوع من القش والذي رقد فيه الليلة الماضية، هو أول سقف يظله منذ أمد بعيد.

وفي خارج المدينة عند بستان بديع لا تحوطه أسوار، التقى المتجول بصف قصير من الخدم، رجالاً ونساء يحملون السلال.

وفي الوسط فوق مقعد مزخرف يستخدم كمحفة ويحمله أربعة أشخاص، تربعت امرأة، هي السيدة، وأحاطت بها وسائد حمراء، وحمتها من الشمس ظلة ملونة. فوقف سيد هارتا جامداً عند مدخل البستان. وأخذ يراقب الموكب والحشم من الرجال والنسوة حاملات السلال. نظر إلى المحفة وإلى السيدة المتربعة عليها. فرأى تحت شعرها الأسود الغزير المعقوص فوق رأسها، وجهاً مشرقاً غاية في العذوبة، وغاية في الذكاء، وفماً أحمر مشرقاً كأنه تينة قطفت لتوها، وحاجبين مرسومين ببراعة على

هيئة قوسين مرتفعين، وعينين داكنتين، ذكيتين لماحتين، وعنقاً دقيقاً صافياً فوق ثوب أخضر موشى بالذهب. وكانت يداها حازمتين ناعمتين طويلتين نحيلتين، وحول معصميها التف سواران ذهبيان عريضان.

رأى سيد هارتا كم هي فاتنة. فابتهج قلبه. وانحنى انحناءة بالغة عندما مرت المحفة على مقربة منه، فلما اعتدلت قامته، تفرس في الوجه المشرق البديع، وفي العينين الذكيتين ذاتي القوسين، واستنشق أريج عطر لم يستطع التعرف عليه.

وأومأت المرأة الجميلة لحظة وابتسمت، ثم اختفت في جوف البستان يتبعها خدمها، وقال سيد هارتا في نفسه: وهكذا أدخل هذه المدينة تحت نجم سعيد. وأحس بحافز إلى دخول البستان حالاً، ولكنه أمعن الفكر، إذ تمثلت له نظرات الاحتقار والارتياب والنفور التي رماه بها الخدم من الرجال والنساء عند مدخل البستان.

إنني ما زلت سامانياً.. ما زلت ناسكاً ومتسولاً. لا يمكن أن أظل كذلك.

ولن أتمكن من دخول البستان على مثل هذا الحال، وضحك.

واستفسر من أوائل الأشخاص الذين صادفهم عن البستان، وعن اسم المرأة فعلم أنه بستان "كماله" الغانية الشهيرة، وأنها تملك بجانب البستان بيتاً في المدينة.

ثم دخل المدينة.. لم يكن لديه غير هدف واحد. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، جلس خلال المدينة ماسحاً لها في متاهة الشوارع، متوقفاً عند بعض الأماكن. ثم استراح على الدرجات الحجرية عند ضفة النهر. وقبيل المساء عقد صداقة مع صبي حلاق أبصر به يعمل في ظل قوس، ووجده مرة أخرى أثناء الصلاة في معبد فيشنو حيث قص عليه حكايات عن فيشنو ولاكشمي. وعندما جن الليل، نام وسط الزوارق على شاطئ النهر، وفي الصباح الباكر اتجه إلى الحلاق قبل أن يتوافد أوائل الزبائن على الحانوت. فأزال له صبي الحلاق لحيته، وكذلك مشطّ شعره ودهنه بالزيت المعطر، ثم ذهب ليستحم في النهر.

وعندما كانت "كماله" الفاتنة تقترب من بستانها في ساعة متأخرة من العصر، متربعة في محفتها، كان سيد هارتا ماثلاً عند المدخل. فانحنى وتلقى تحية الغانية، وأشار إلى الخادم الأخير في الموكب، وطلب منه أن يعلن إلى سيدته أن برهميا شاباً يريد أن يتحدث إليها. وعاد الخادم بعد هنيهة، وطلب من سيد هارتا أن يتبعه، وقاده صامتاً على مقصورة حيث كانت "كماله" مضطجعة فوق أريكة، ثم تركه..

وسألته كماله: "ألم تكن واقفاً في الخارج أمس وألقيت إليَّ بالتحية؟".

ـ "بلى بكل تأكيد.. رأيتك أمس، وألقيت إليك بالتحية".

ـ "ولكن ألم تكن لك لحية بالأمس، وشعر طويل، وغبار يعلو شعرك؟".

ـ "لقد لاحظت جيداً، ورأيت كل شيء. رأيت سيد هارتا ابن البرهمي الذي هجر بيته لكي يصبح سامانيا. وظل سامانيا ثلاثة أعوام. ولقد تركت الآن، على كل حال ـ هذا المسلك، وأتيت إلى هذه المدينة. وكان أول من صادفته قبل أن أصل المدينة هو أنت. لقد جئت إلى هنا لأخبرك ـ أي كماله ـ أنك أول امرأة يتحدث إليها سيد هارتا دون أن يغض من طرفه، ولن أغض من طرفي أبداً بعد ذلك عندما التقي بحسناء".

فابتسمت كماله، وتلاعبت بمروحتها المصنوعة من ريش الطاووس ثم سألته: "أهذا كل ما جاء سيد هارتا ليخبرني به؟".

ـ "جئت لأخبرك بهذا وأشكرك على أنك بهذا الحسن. وإذ لم يكن في ذلك ما يسؤوك، أود أن أطلب منك ـ أي كماله أن تكوني صديقتي ومعلمتي ـ فأنا لا أعرف شيئاً عن الفن الذي أنت أستاذته..".

وهنا أطلقت كماله ضحكة عالية.

- "ليس من خبرتي أن يأتي إليَّ سامانيا من الغابات ويريد أن يتعلم مني. لم يأت إليَّ أبداً سامانيٌّ بشعر طويل ومئزر قديم ممزق. كثير من الشبان حضروا إلي، ومنهم أبناء براهمة، ولكنهم أتوا إليَّ في ثياب فاخرة، وأحذية فاخرة، العطر في شعورهم، والأموال في أكياسهم، هكذا كان الشبان يأتون إليَّ أيها السامانى".

فقال سيد هارتا: "ها أنذا قد شرعت أتعلم منك. وكنت بالأمس قد تعلمت شيئاً. وفعلاً تخلصت من لحيتي، ومشطت شعري، ودهنته بالزيت، ولم يعد ينقصني الكثير أيتها السيدة الممتازة: ثياب فاخرة، وحذاء فاخر، ومال في محفظتي. لقد أخذ سيد هارتا على عاتقه تحقيق أشياء كثيرة أصعب كثيراً من هذه التفاهات.. فبلغ ما يريد. فلماذا لا أبلغ ما عزمت على القيام به أمس، أن أكون صديقك، وأن أتعلم منك متاع الحب. ستجدينني تلميذاً نجيباً يا كماله. ولقد تعلمت أموراً أصعب كثيراً مما ينبغي أن تعلميني إياها. إذن فسيد هارتا لا يليق بك كما هو الآن. بالزيت في شعره ولكن بلا ثياب أو حذاء، وبغير نقود".

فضحكت كماله وقالت: "كلا.. إنه لا يليق بعد. ينبغي أن تكون له ثياب.. ثياب أنيقة.. وحذاء.. حذاء فاخر، وكثير من

النقـود في محفظتـه، وهـدايا لكمالـه. هـل عرفـت الآن أيهـا السـاماني القـادم مـن الغابـات؟ هـل فهمـت؟". وهتـف سـيد هارتـا: "فهمت جيداً جداً. وكيف لا أفهم عندما يخرج الكـلام من مثل هذا الثغر؟ إن ثغرك يشبه تينة قطعت لتوها يا كماله. وشفتاي أيضـاً حمـراوان ناضـرتان وسـيلائمان شـفتيك تمـام الملائمـة، وسترين. ولكن أخبريني يا كماله الجميلة، ألا تشعرين بشيء من الخوف من هذا الساماني القادم من الغابة ليتعلم الحب؟".

ـ "ولماذا أخاف من ساماني.. ساماني غبي أتى من الغابة لم يعاشر إلا بنات آوى، ولا يعرف شيئاً عن النساء؟".

ـ "إن السـاماني قـوي، ولا يخشـى شـيئاً إنـه يسـتطيع أن يغتصبك أيتها السيدة الجميلة، وأن يسرقك، يستطيع إيذاءك".

ـ "كلا، أيها الساماني، لست خائفة، هل خشي ساماني أو برهمي قط أن يأتي أحد ليضربه أو يسلبه معرفته أو تقواه، أو قدرته في التعمق على التفكير؟ كلا لأنها أمور يمتلكها في نفسه، ويستطيع أن يعطي منها ما يشاء إذا شاء، هذا هو الحال تماماً مع كماله، ومع متع الحب. إن شفتي كماله شهيتان حمراوان، ولكن حاول تقبيلهما ضد إرادة كماله. فلن تنتزع منها قطرة واحدة من العذوبة. مع أنهما تعرفان جيداً كيف تمنحان العذوبة. أنت تلميذ نجيب يا سيد هارتا، إذن فتعلم هذا

أيضاً. يستطيع المرء أن يستجدي، وأن يشتري، وأن يعرض عليه الحب في الطرقات، وأن يجده، ولكنه لا يمكن أن يغتصب. لقد أسأت الفهم. أجل ومما يدعو للأسف أن شاباً مهذباً مثلك يسيء الفهم".

وانحنى سيد هارتا وابتسم "أنت على صواب يا كماله، إن ذلك يدعو للأسف.. للأسف الشديد. كلا، ينبغي ألا تضيع أية قطرات من العذوبة من شفتيك أو من شفتي. وإذن سيأتي سيد هارتا مرة أخرى عندما يكون لديه ما ينقصه: الثياب والحذاء والنقود. ولكن أخبريني يا كماله الفاتنة، ألا تستطيعين إسداء نصيحة؟ ولم لا؟ من ذا الذي لا يسدي نصيحة عن طيب خاطر لساماني مسكين جاهل أتى من بين بنات آوى في الغابة؟.

ـ "أين أذهب ـ يا عزيزتي كماله للحصول على هذه الأشياء الثلاثة بأسرع ما يمكن؟".

ـ "يا صديقي.. أناس كثيرون يريدون أن يعرفوا هذا. وينبغي عليك أن تفعل ما تعلمته، وتحصل على النقود والثياب والأحذية.. إن الرجل الفقير لا يستطيع الحصول على المال بطريقة أخرى".

ـ "أستطيع أن أفكر، وأنتظر، وأصوم".

ـ "لا شيء سوى ذلك؟".

ـ "لا شيء. أوه أجل. أستطيع أن أنظم الشعر. هل تمنحينني قبلة مقابل قصيدة؟".

ـ "سأفعل ذلك إن أعجبتني قصيدتك، ماذا سميتها؟".

وبعد أن فكر سيد هارتا برهة، أنشد هذه الأبيات:

"دلفت كماله الفاتنة إلى بستانها، وعلى مدخل البستان وقف السامانى الأسمر..

ـ وعندما وقعت عيناه على زهرة اللوتس،

انحنى انحناءة عميقة.

واستجابت له كماله بابتسامة.

فقال السامانى الشاب في نفسه:

من الأفضل أن يقدم المرء،

قرابين لكماله الفاتنة

بدلاً من أن يقدّمها للآلهة".

فصفقت كماله بيديها بشدة حتى صلصلت الأساور الذهبية في معصميها.

ـ "شِعرك رائع أيها السامانى الأسمر، ولن أخسر شيئاً بحق، إن وهبتك قبلة جزاء عليه".

وقربته منها بعينيها، فوضع وجهه لصق وجهها، ووضع شفتيه على شفتيها اللتين كانتا أشبه بتينة قطفت لتوها. وقبلته كماله قبلة عميقة. وفي انفعاله الشديد، أدرك سيد هارتا أنه تعلم منها الكثير، وكم كانت ذكية وكيف سيطرت عليه، وأبعدته عنها، ثم فتنته. وكيف بعد هذه القبلة الطويلة تنتظره سلسلة طويلة أخرى من القبلات، كلها مختلفة. فوقف ساكناً يتنفس في عمق. كان في هذه اللحظة كطفل استولت عليه الدهشة من اكتمال العلم والمعرفة التي تكشفت أستارها أمام عينيه.

وقالت كماله: "شعرك جيد جداً، ولو كنت غنية، لمنحتك مكافأة عليه.

"ولكن، سيكون من العسير عليك أن تكسب ما تريد من مال بالشعر. فسوف تحتاج إلى مال وفير إن أردت أن تكون صديقاً لكماله".

فتلعثم سيد هارتا قائلاً: "ما أروع طريقتك في التقبيل يا كماله!".

ـ "أجل، بالطبع، وهذا هو سبب عدم احتياجي للثياب، والأحذية، والأساور. وكل تلك الأشياء الجميلة. ولكن، ماذا أنت صانع؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر غير التفكير والصيام وقرض الشعر؟".

قال سيد هارتا: "أعرف أيضاً "أناشيد القربان"، ولكنني لن أنشدها بعد الآن. كما أعرف أيضاً بعض التعاويذ، ولكنني لن أتفوه بها بعد الآن. وقد قرأت الكتب المقدسة..".

فقاطعته كماله: "انتظر.. أنت تستطيع القراءة والكتابة؟".

ـ أجل بكل تأكيد، كثير من الناس يستطيعون ذلك".

ـ "ليس معظم الناس، فأنا لا أستطيع. من حسن الحظ أنك تعرف القراءة والكتابة، حسن جداً، وربما احتجت للتعاويذ أيضاً".

وفي هذه اللحظة دخل خادم، وهمس بشيء في أذن سيدته.

قالت كماله: "جاءني زائر.. أسرع بالاختفاء يا سيد هارتا. يجب ألا يراك أحد هنا سأراك غداً مرة أخرى".

ومهما يكن من أمر، فقد أمرت الخادم أن يعطي البرهمي المقدس عباءة بيضاء. وبدون أن يعرف تماماً ما يحدث، قاده الخادم إلى الخارج عن طريق دائري يؤدي إلى حديقة المنزل، وقدم إليه العباءة، وتركه في الأجمة، وأصدر إليه تعليمات صريحة بمغادرة البستان دون أن يراه أحد بأسرع ما يمكن..

وفعل ما أمر به راضياً.. ولما كان معتاداً على الغابة، فقد سلك طريقه صامتاً خارج البستان. واجتاز السياج وعاد إلى المدينة

راضياً، وهو يحمل عباءته الملفوفة تحت ذراعه. ووقف عند باب حانة يلتقي عندها المسافرون، فاستجدى طعامه صامتاً وتقبل قطعة من فطيرة الأرز صامتاً، وقال في نفسه: ربما لا أحتاج غداً إلى استجداء الطعام. وفجأة تملكه شعور بالكبرياء. إنه لم يعد من السامانا ولا يليق به أن يستجدي بعد الآن. فأعطى فطيرة الأرز لكلب وظل بلا طعام.

إن الحياة المعاشة هنا بسيطة. هذا ما قاله في نفسه... ولا مصاعب فيها. وعندما كنت من السامانا، كان كل شيء عسيراً، مضجراً، باعثاً على اليأس في نهاية الأمر. أما الآن فكل شيء سهل.. سهل كالتعليم الذي تقوم به كماله في التقبيل. أنا في حاجة إلى الثياب والنقود. هذا كل ما في الأمر..

وهذه أهداف لا تؤرق المرء في منامه.. وكان قد استفسر عن منزل كماله في المدينة، وذهب إليها في اليوم التالي:

بادرته قائلة: "الأمور تسير سيراً حسناً. كاما سوامي يتوقع أن تزوره. إنه أغنى تاجر في المدينة. فإن أعجبته، ألحقك بخدمته. كن ذكياً أيها الساماني الأسمر. لقد دبرت أن يذكر له اسمك عن طريق أشخاص آخرين. كن ودوداً معه، فهو ذو نفوذ كبير. ولكن لا تكن متواضعاً كل التواضع. أنا لا أريدك أن تكون خادماً له، وإنما ند له، وإلا لن أكون راضية عنك. وكاما

سوامي بدأ يطعن في السن، ويستمرئ الكسل، فإن أعجبته فسيضع فيك ثقة عظيمة".

فشكرها سيد هارتا وضحك، وعندما علمت أنه لم يتناول شيئاً من الطعام ذلك اليوم واليوم الذي سبقه، أمرت بإحضار خبز وفاكهة له، وأشرفت على إطعامه، قالت له عند رحيله: "كنت سعيد الحظ.. فالأبواب تفتح لك واحداً تلو الآخر. كيف حدث هذا؟ أفيك سحر؟".

فقال سيد هارتا: "أخبرتك أمس أنني أعرف كيف أفكر، وأنتظر، وأصوم، ولكنك لم تعتبري هذه الأمور مجدية، ولكنك سترين أنها مجدية جداً يا كماله". سترين أن السامانى الغبي القادم من الغابة يعرف كثيراً عن الأشياء النافعة. كنت أول أمس مجرد شحاذ أغبر، وأمس قبَّلت كماله، وسأصبح تاجراً في القريب العاجل، وأملك المال، وكل تلك الأشياء التي تقدرينها..".

فأمَّنت على كلامه قائلة: "تماما، ولكن كيف كان من الممكن أن تتصرف بدوني؟ وأين ستكون إن لم تساعدك كماله؟".

قال سيد هارتا: "عزيزتي كماله، عندما أتيت إليك في البستان، كان هذا هو الخطوة الأولى.. كانت نيتي معقودة على

تعلم الحب من أجمل امرأة. وفي اللحظة التي اتخذت فيها ذلك القرار، كنت أعلم أيضاً أنني سأقوم بتنفيذه، وكنت أعلم أنك ستعينيني عليه، عرفت ذلك من أول نظرة منك عند مدخل البستان".

ـ وإن لم أُرد؟".

ـ ولكنك أردت. اسمعي يا كماله، إنك عندما تلقين حجراً في الماء، فإنه يشق أسرع طريق له إلى قاع المياه. وهذا هو حال سيد هارتا عندما يكون له هدف وغاية. سيد هارتا لا يفعل شيئاً، إنه ينتظر ويفكر ويصوم، ولكنه يشق طريقه في أمور العالم كما يشق الصخر طريقه في الماء دون أن يفعل شيئاً، ودون أن يثير نفسه: إنه منجذب، وهو تارك نفسه للسقوط. إنه منجذب بهدفه، وهو لا يدع أي شيء يدخل عقله ويكون معارضاً لهدفه. هذا ما تعلمه سيد هارتا من السامانا. وهذا ما يسميه الحمقى سحراً، وما يعتقدون أنه بفعل الجان. كل إنسان يستطيع أن يصنع السحر. وكل إنسان يستطيع أن يبلغ هدفه إذا استطاع أن يفكر وينتظر ويصوم".

وأنصتت إليه كماله، فقد أحبت صوته، وأحبت النظرة في عينيه..

قالت بصوت ناعم: "ربما كان الأمر على ما تقول يا صديقي، وربما كان أيضاً لأن سيد هارتا رجل وسيم، ولأن نظرته تنال استحسان النساء، ولأنه محظوظ". وقبلها سيد هارتا مودِّعاً: "ربما كان الأمر على هذا النحو يا معلمتي. ويا ليت نظرتي تنال إعجابك دائماً، وأن يأتي إليّ الحظ السعيد منك دائماً!".

الفصل السادس

مع الناس

ذهب "سيد هارتا" لرؤية "كاماسوامي" التاجر، فأرشدوه إلى منزل بادي الثراء، وقاده الخدم عبر سجاجيد نفيسة إلى حجرة انتظر فيها رب المنزل.

ودخل "كاماسوامي" الحجرة.. رجل مرن الجسم، يفيض حيوية، رمادي الشعر، له عينان ذكيتان ماكرتان، وفم شهواني، وحيا السيد والزائر كل منهما الآخر في مودة.

بدأ التاجر قائلاً: "قيل لي إنك برهمي، ورجل علم، ولكنك تبحث عن عمل مع تاجر.. فهل أنت في حاجة ـ أيها البرهمي ـ ولهذا تبحث عن عمل؟". فأجاب سيد هارتا:

"كلا، لست محتاجاً، ولم أكن محتاجاً قط؟ لقد جئت من السامانا الذين عشت معهم زمناً طويلاً".

ـ "إذا كنت قد جئت من السامانا، فكيف لا تكون محتاجاً؟ أليس السامانا قوماً لا يملكون شيئاً على الإطلاق؟".

قال سيد هارتا: "أنا لا أملك شيئاً، إن كان هذا هو ما تعنيه. ليس لدي أملاك بكل تأكيد، ولكن بإرادتي الحرة.. ولهذا لا أعد محتاجاً".

ـ "ولكن كيف ستعيش إذا كنت لا تملك شيئاً؟".

ـ لم أفكر في هذا قط يا سيدي، وقد عشت بلا ممتلكات ما يقرب من ثلاثة أعوام، ولم أفكر أبداً بِمَ سأعيش".

ـ إذن فقد عشت على ما يمتلكه الآخرون".

ـ في الظاهر. والتاجر يعيش أيضاً على ما يمتلكه الآخرون".

ـ "أحسنت القول، ولكنه لا يأخذ من الآخرين دون مقابل. إنه يعطي بضائعه نظير ما يأخذ".

ـ "هذا ما تبدو عليه الأشياء.. الكل يأخذ، والكل يعطي، والحياة تسير على هذا النحو".

ـ آه، ولكن إذا كنت لا تمتلك شيئاً تعطيه؟".

ـ كل إنسان يعطي ما لديه: الجندي يعطي القوة، والتاجر السلع، والمعلم التعليم، والزارع الأرز، والصياد السمك".

ـ "تماماً.. وماذا تستطيع أن تعطي؟ ماذا تعلمت بحيث يمكن أن تعطيه؟".

ـ "أستطيع أن أفكر وأنتظر وأصوم".

ـ "أهذا كل شيء؟".

ـ "أعتقد أن هذا هو كل شيء".

ـ "وما نفع هذا. الصيام ـ مثلاً ـ أي نفع فيه؟".

ـ "إنه ذو قيمة عظيمة يا سيدي، فإن لم يجد المرء شيئاً يأكله، فإن أذكى ما يستطيع أن يفعله هو أن يصوم. فإذا لم يكن سيد هارتا قد تعلم مثلاً ـ أن يصوم، لكان عليه أن يبحث عن عمل اليوم سواء معك أو مع غيرك. ذلك أن الجوع سوف يدفعه إلى ذلك. ولكن سيد هارتا يستطيع الآن أن ينتظر في هدوء، إنه ليس نافد الصبر عجولاً، وليس محتاجاً، ويستطيع أن يصد عنه غائلة الجوع زمناً طويلاً، وأن يضحك منها.. ومن ثم كان الصوم نافعاً يا سيدي".

ـ "أنت على حق يا ساماني.. انتظر لحظة".

وخرج "كاماسوامي" وعاد حاملاً لفافة من الورق، وناولها لضيفه ثم سأله: "أتستطيع أن تقرأ هذا؟".

فنظر سيد هارتا إلى المخطوطة وكان مكتوباً فيها اتفاقية بيع. وشرع يقرأ محتوياتها.

قال كاماسوامي: "رائع! وهل تكتب لي شيئاً على هذه الورقة؟".

وأعطاه ورقة وريشة، فكتب سيد هارتا شيئاً، وأعاد الورقة.

وقرأ كاماسوامي: "الكتابة أمر حسن، والتفكير أحسن منها، والذكاء حسن والصبر أحسن منه".

فأثنى عليه التاجر قائلاً: "أنت تكتب كتابة جيدة جداً، وما زالت أمامنا أمور كثيرة للمناقشة، ولكني أدعوك اليوم لتكون ضيفاً علي، وأن تقيم في منزلي".

وشكره سيد هارتا، وقبل ضيافته، إنه يعيش الآن في منزل التاجر. وأحضرت إليه الثياب والأحذية. وكان الخادم يعد له الحمام يومياً. وكانت الوجبات الفخمة تقدم له مرتين في اليوم الواحد. بيد أن سيد هارتا لم يكن يتناول غير وجبة واحدة يومياً، ولم يكن يأكل اللحم، أو يشرب النبيذ. وتحدث إليه "كاماسوامي" عن أعماله، وأطلعه على بضائعه، ومخازنه، وحساباته. وتعلم سيد هارتا أشياء عديدة. كان ينصب كثيراً، ويتحدث قليلاً. وكان يتذكر كلمات كماله دائماً، فلم يذل نفسه للتاجر قط، بل أجبره على أن يعامله معاملة الند، بل أكثر من الند في كثير من الأحيان، وكان "كاماسوامي" يصرف أعماله في اهتمام وحماسة، غير أن سيد هارتا كان ينظر إلى الأمر كله على أنه لعب ولهو يحاول أن يحفظ قواعده جيداً، ولكن دون أن يحرك في قلبه شعرةً.

ولم ينقض زمن طويل على وجوده في منزل "كاماسوامي" حتى كان يشارك السيد أعماله. ولم ينقطع يوماً عن زيارة كماله الفاتنة في الساعة التي تدعوه إليها في ثياب أنيقة وحذاء فاخر.

وسرعان ما قدَّم إليها الهدايا أيضاً. وتعلم أشياء كثيرة من شفتيها الحكيمتين الورديتين. وكان لا يزال صبياً فيما يتعلق بالحب، وإن كان ميالاً إلى الغوص في أعماقه دون تبصر أو شبع، وتعلم منها أن المرء لا يمكن أن يستمتع باللذة دون أن يعطيها، وأن كل نأمة، وكل ضمة، وكل لمسة، وكل نظرة، وكل جزء في الجسم، له أسراره التي يمكن أن تمنح اللذة لمن يستطيع أن يفهم.

وعلمته أنه لا ينبغي على العشاق أن يفترقا أحدهما عن الآخر بعد إشباع حبهما دون إعجاب أحدهما بالآخر، دون سيطرة وخضوع في آن واحد، وذلك حتى لا ينشأ شعور بالشبع أو الحرمان، أو ذلك الشعور البشع بإساءة الاستعمال له أو عليه. وقضى ساعات مدهشة مع هذه الغانية الأريبة الحسناء فأصبح تلميذها وعاشقها وصديقها، وهنا، مع كماله، لا مع أعمال كاماسوامي ـ اتخذت حياته الراهنة قيمتها ومعناها.

وكان التاجر يحيل إليه كتابة الخطابات والطلبات الهامة واعتاد الرجوع إليه في جميع المسائل الهامة. وسرعان ما فطن إلى أن سيد هارتا لا يفهم إلا قليلاً عن الأرز والصوف وعن الشحن والتجارة، ولكنه يتميز بلباقة نادرة.. ويتفوق عليه في الهدوء والاتزان، وفي فن الإصغاء، وإحداث انطباع طيب في نفوس الغرباء. قال ذات مرة لصديق له: "هذا البرهمي ليس تاجراً حقيقياً، ولن يكون أبداً، فهو لا يستغرق كلية في التجارة، ولكنه حائز على سر أولئك الناس الذين يأتي إليهم النجاح من تلقاء نفسه، سواء كان ذلك لأنه ولد تحت نجم حسن الطالع، أو كان سحراً، أو لأنه تعلمه من السامانا.. إذ يبدو عليه دائماً أنه يلعب بالتجارة، فهي لا تترك فيه أي تأثير، ولا تسيطر عليه أبداً، وهو لا يخشى الفشل قط، ولا تعنيه الخسارة على الإطلاق".

ونصح الصديق التاجر قائلاً: "امنحه ثلث أرباح الصفقات التي يعقدها لك، ولكن دعه أيضاً يقاسمك نفس النسبة في الخسائر إذا وقع منها شيء. وبهذه الطريقة يمكن أن يصير أشد حماسة".

واتبع "كاماسوامي" نصيحة صديقه. غير أن سيد هارتا لم يهتم كثيراً.. فإذا صادف ربحاً، تقبله هادئاً، وإن أصابته خسارة ضحك وقال: "فليكن سارت الصفقة على غير ما يرام".

ويبدو في الواقع أنه غير مكترث بالتجارة. فذات مرة سافر إلى قرية ليبتاع محصولاً كبيراً من الأرز. وعندما وصل إلى هناك كان الأرز قد بيع فعلاً إلى تاجر آخر. ومع ذلك فقد مكث سيد هارتا عدة أيام في تلك القرية يسري عن الفلاحين ويعطى نقوداً للأطفال، وشارك في حفل زفاف، وعاد من الرحلة راضياً تمام الرضى، ولامه "كاماسوامي" لأنه لم يعد في الحال، ولأنه بدد الوقت والمال. فأجابه سيد هارتا: "لا تلمني أيها الصديق العزيز.. إن شيئاً لم يتحقق قط باللوم والتأنيب، وإذا كانت قد حلت بنا خسارة، فأنا سأتحملها. إنني راض جداً عن هذه الرحلة، فقد تعرفت على كثير من الناس، وصادقت رجلاً برهمياً، وجلس الأطفال على ركبتي، وأراني الفلاحون حقولهم.. ولم يعاملني أحد بوصفي تاجراً".

واقتنع كاماسوامي محجماً "هذا كله بديع.. ولكنك تاجر في واقع الأمر، أم تراك سافرت لمتعتك الخاصة؟".

فضحك سيد هارتا: "بكل تأكيد لقد سافرت من أجل متعتي الخاصة، ولم لا؟ لقد تعرفت على أناس، وأحياء جدد، واستمتعت بالصداقة والثقة، ولو كنت "كاماسوامي" لرحلت في الحال، يلازمني شعور بالضيق بعد أن رأيت أنني عاجز عن الشراء، وحينئذ سيكون الوقت والمال قد ضاعا حقاً. ولكنني

أنفقت عدداً من الأيام الجميلة.. وتعلمت كثيراً، واستمتعت كثيراً، ولم أسبب أذى لنفسي أو للآخرين، سواء بالمضايقة أو التسرع. فإذا ذهبت إلى هناك مرة أخرى، ربما لشراء محصول آخر، أو لأي غرض آخر، فسوف يستقبلني أشخاص أصدقاء، وسأكون مسروراً لأنني لم أظهر في المرة السابقة أي تسرع، أو استياء. على أي حال فليكن ما كان، ولا تضر نفسك باللوم، وإذا جاء اليوم الذي تقول فيه لنفسك، إن هذا السيد هارتا يؤذيني، فقلها كلمة واحدة، وسيمضي سيد هارتا لحال سبيله.. فحتى ذلك الحين دعنا نكن أصدقاء مخلصين".

وذهبت محاولات التاجر لإقناع سيد هارتا بأنه يأكل من خبزه ـ خبز كاماسوامي ـ ذهبت أيضاً إدراج الرياح، ذلك أن سيد هارتا كان يأكل عيش نفسه. وفضلاً عن ذلك، فإنهم كانوا جميعاً يأكلون من عيش الآخرين، من عيش الجميع. ولم يعبأ سيد هارتا قط بمتاعب كاماسوامي. وقد كانت لكاماسوامي متاعب كثيرة. فإذا دلت النذر على فشل إحدى الصفقات، وإذا ضاعت طلبية من البضائع، وإذا ظهر أن مديناً لا يستطيع سداد دينه، لم يستطع كاماسوامي أبداً إقناع زميله بأن الكلمات الغاضبة المهينة تفيد شيئاً، أو أن تكوين الغضون على الجبين والأرق بالليل تنفع صاحبها أي نفع. وعندما ذكره

كاماسوامي ذات مرة بأنه تعلم منه كل شيء أجابه: "لا تؤلف هذه النكات. لقد تعلمت منك كم تتكلف سلة من السمك، وكم تكون الفائدة التي يطالب بها المرء إذا أقرض مالاً. هذه هي معرفتك. ولكنني لم أتعلم منك كيف أفكر يا عزيزي كاماسوامي، ومن الأفضل أن تتعلم ذلك مني".

ولم يكن قلبه في التجارة حقاً. كل ما فيها من فائدة أنها تجلب إليه المال من أجل كماله. وكانت تجلب إليه أكثر مما يحتاج إليه في واقع الأمر. وفضلاً عن ذلك، كان تعاطف سيد هارتا وحبه للاستطلاع ينصبان على الناس وحدهم.. الناس الذين كان كدحهم، ومتاعبهم ومسراتهم وحماقاتهم، مجهولة بالنسبة إليه، بل أكثر بعداً عنه من القمر. ومع أنه كان يجد من اليسير عليه أن يتحدث إلى كل إنسان وأن يتعلم من كل إنسان، إلا أنه كان في وعي بهذه الحقيقة: وهي أن ثمة شيئاً يفصل بينه وبينهم.. وهذا راجع إلى أنه كان من السامانا. كان يرى الناس يعيشون بطريقة صبيانية، أو حيوانية، وهي طريقة يحبها ويحتقرها في آن معاً. كان يراهم يكدحون ويعانون ويشيبون من أشياء لا تستحق كل هذا الثمن ـ من المال والمسرات الصغيرة والأمجاد التافهة، كان يراهم يتلاومون ويسيئون بعضهم إلى البعض الآخر، ورآهم ينوحون من آلام يضحك منها السامانا، ويعانون ضروباً من الحرمان لا يشعر بها السامانا.

وكان يقبل كل ما يحمله الناس إليه: التاجر الذي يحضر إليه الكتاب ليبيعه يلقى كل ترحيب، المدين الذي يسأل عن قرض، يلقى كل ترحيب؛ الشحاذ الذي يمكث ساعة ليروي له قصة فقره، وإن لم يكن قد كابد من الفقر ما يكابده السامانا يلقى كل ترحيب. ولم يكن يعامل التاجر الغني الغريب معاملة تختلف عن معاملته للخادم الذي يلحق له أو للباعة المتجولين الذين يبتاع منهم الموز. ويتظاهر بالغفلة وهم يسرقون منه العملات الصغيرة. فإذا حدث أن جاء إليه كاماسوامي، وشكا إليه متاعبه، أو وجه إليه اللوم والتأنيب على صفقة من الصفقات، أصغى إليه في اهتمام وانتباه، وتعجب منه محاولاً أن يفهمه. وربما تنازل له قليلاً إذا بدا له ذلك ضرورياً، ثم انصرف عنه إلى الشخص التالي الذي يريده. وكان كثير من الناس يأتون إليه للمتاجرة معه، أو لخداعه، أو للاستماع إليه، أو لاستدرار عطفه، والإنصات إلى نصائحه. فكان يسدي نصائحه، ويتعاطف مع الناس ويقدم الهدايا ويسمح للآخرين بخداعه قليلاً. فكان يشغل أفكاره بهذه اللعبة كلها وبالانفعال الذي يلعب به الناس جميعاً، بنفس القدر الذي يشغل به أفكاره من قبل بالاله وبراهما.

ومن حين إلى آخر، كان يسمع في أعماق نفسه صوتاً عذباً رقيقاً يذكره تذكيراً هادئاً ويشكو شكوى هادئة حتى لا يكاد يسمعه، ثم لم يلبث أن رأى فجأة أنه يحيا حياة غريبة، وأنه يأتي أموراً كثيرة لا تعدو أن تكون لعباً، وأنه يمرح أشد المرح، ويشعر بالسرور أحياناً. بيد أن السعادة الحقيقية كانت تنساب بعيداً عنه دون أن تمسه. وكاللاعب الذي يلعب بكرته، كان يلعب هو بالتجارة ومع الناس الذين يحيطون به، يراقبهم ويستمد منهم التسلية، ولكنه لم يكن معهم بقلبه أو بطبيعته الحقة. كانت ذاته الحقيقية تتجول في مكان آخر، بعيداً جداً، تتجول دون انقطاع ودون أن يراها أحد.. ودون أن تكون لها أدنى صلة بحياته.

وكان الخوف يستولي عليه أحياناً من هذه الأفكار، فيود لو يستطيع أن يشارك الناس أيضاً في أمورهم اليومية الصبيانية بشيء من الحرارة، وأن يشاطرهم ما يخوضون فيه بصدق، وأن يتمتع ويعيش حياتهم بدلاً من أن يظل في مكانه كالمتفرج.

وكان يزور كماله الجميلة بانتظام. وتعلم فن الحب الذي يكون فيه الأخذ والعطاء شيئاً واحداً أكثر من أي فن آخر.

وكان يتحدث إليها، ويتعلم منها وينصحها وينتصح منها، وكانت تفهمه أكثر مما فهمه "جوفيندا"، إذ كانت أقرب شبهاً إليه.

وذات مرة قال لها: "أنت تشبهينني، وأنت تختلفين عن سواك من الناس. أنت كماله لا شيء آخر، وفي أعماق نفسك سكنٌ ومحراب تستطيعين الانسحاب إليهما في أي وقت لتكوني ذاتك، مثلما أستطيع أنا. قلائل من الناس الذين يملكون هذه القدرة، ومع ذلك فكل إنسان يستطيع أن تكون له".

فقالت كماله: "ليس كل الناس أذكياء".

قال سيد هارتا: "إنها مقدرة لا صلة لها بالذكاء يا كماله.. كاماسوامي لا يقل عني ذكاء، ولكنه لا يملك مثل هذا المحراب، وآخرون يملكونه وإن كانوا مجرد أطفال في إدراكهم، إن معظم الناس يا كماله أشبه بورقة شجر ساقطة تلف وتدور في الهواء، ثم ترف وتهوي إلى الأرض ولكن هناك فئة قليلة أشبه بالنجوم التي تسلك مساراً محدداً، فلا رياح تصل إليهم، وفي أنفسهم يستقر المرشد والطريق. وبين الحماء جميعاً الذين عرفتهم، وقد عرفت منهم الكثير، كان هناك واحد بلغ الكمال في هذا المجال، وليس في إمكاني أن أنساه أبداً. إنه "جوتاما" المستنير الذي يبشر بهذه الدعوة. وهناك آلاف من الشبان يستمعون إلى تعاليمه كل يوم، ويتبعون تعليماته كل ساعة، ولكنهم جميعاً أوراق متهاوية لا يملكون الحكمة والمرشد داخل أنفسهم".

ونظرت إليه كماله، وابتسمت: "ها أنت ذا تتحدث عنه مرة أخوها أنت تعود لأفكار الساماتا".

فلم يجب سيد هارتا، ولعبا لعبة الحب، واحدة من اللعب الثلاثين أو.. الأربعين المختلفة التي تعرفها كماله. كان جسدها لينا كالنمر أو كقوس الصياد، ومن تعلم منها فن الحب، عرف كثيراً من المتع وكثيراً من الأسرار. وظلت تلعب مع سيد هارتا وقتاً طويلاً، تصده ثم تجتاحه وتستولي عليه، وهي مسرورة ببراعتها حتى غلبته، فرقد إلى جانبها منهوك القوى.

وانحنت عليه الغانية وحدقت طويلاً في وجهه، وفي عينيه اللتين غشيهما التعب. قالت وهي ممعنة في التفكير: "أنت أفضل عاشق عرفته، فأنت أقوى من الآخرين، وأكثر ليونة، وأسرع استجابة، لقد أخذت عني الفن جيداً. سيد هارتا: عندما أصبح أكبر سناً، سيكون لي ولد منك ذات يوم، ومع ذلك فقد ظللت ساماتا يا عزيزي، إنك لا تحبني حقاً، أنت لا تحب أحداً، أليس كذلك؟".

قال سيد هارتا متعباً: "ربما.. أنا مثلك فأنت لا تستطيعين الحب كذلك، وإلا فكيف يمكن أن تمارسي الحب بوصفه فناً؟ لعل الناس الذين هم على شاكلتنا لا يستطيعون الحب. بسطاء الناس يستطيعون ذلك ـ وهذا هو سرهم".

الفصل السابع

سانسارا

عاش سيد هارتا حياة الدنيا زمناً طويلاً دون أن ينتمي إليها. كانت حواسه التي أماتها في أعوام السامانا العامرة بالزهد والتقشف قد استيقظت من جديد، فذاق حياة البذخ والشهوة والقوة، ولكنه ظل ردحاً طويلاً سامانياً في صميم قلبه. وأدركت كماله بذكائها الفطري هذه الحقيقة، فقد كانت حياته موجهةً دائماً بفن التفكير والانتصار والصوم، وكان الناس المتكالبون على الدنيا.. غمار الناس، ما برحوا غرباء عنه مثلما كان غريباً عنهم.

ومضت الأعوام.. ولما كانت مغلفة بظروف مريحة، لم يكد سيد هارتا يفطن إلى مرورها. لقد أصبح الآن من سراة القوم، يملك بيتاً خاصاً له، وله خدم عاكفون على خدمته، وحديقة في ضواحي المدينة تطل على النهر، وكان الناس يحبونه

ويأتون إليه كلما أعوزهم المال أو النصح. ومع ذلك لم يكن له ـ باستثناء كماله ـ أي أصدقاء مقربين.

أما تلك اليقظة المجيدة المتسامية التي عاناها في شبابه ـ تلك الأيام لتي أعقبت موعظة جوتاما، وبعد افتراقه عن جوفيندا، وأما ذلك التوقع المتحفز وتلك الكبرياء التي دفعته إلى الوقوف وحيداً بلا أساتذة أو مذاهب، وأما ذلك التأهب المتلهف للإصغاء إلى الصوت الإلهي في أعماق فؤاده ـ أما هذا كله فقد استحال رويداً رويداً إلى ذكرى ـ حتى تلاشى. وذلك النبع المقدس الذي كان قريباً منه ذات يوم، والذي أنشد بصوت عال في داخله ذات مرة، إنما يهمس الآن خافتا من مكان بعيد. ولكنه ما برح يحتفظ على كل حال بكثير مما تعلمه من السامانا ومما تعلمه من جوتاما، ومن أبيه، ومن البراهمة: حياة معتدلة، ومتعة في التفكير، وساعات طويلة من التأمل، ومعرفة خفية للذات الأبدية التي ليست جسداً وليست شعوراً.. احتفظ بالكثير من هذه الأشياء، وهناك أشياء أخرى ساخت وغطّاها التراب.

وكما تظل عجلة صانع الآلات تدور زمناً طويلاً بعد أن بدأت في الحركة، ثم تبطئ في سيرها وتتوقف، كذلك ظلت عجلة الناسك، عجلة التفكير، عجلة التميز تدور زمناً طويلاً في

نفس سيد هارتا. أنها فتئت تدور ولكن في بطء وتردد، حتى أوشكت أن تتوقف. وكما تتسرب الرطوبة متباطئة إلى جذع الشجرة المحتضرة حتى تملأها وتفسدها تماماً، كذلك تسللت الدنيا والارتخاء إلى روح سيد هارتا.. وفي بطء امتلأت بهما روحه فأثقلتاها وأرهقتاها وأسلمتاها للنوم، غير أن حواسه ظلت مستيقظة من ناحية أخرى، بل أشد استيقاظاً، واكتسبت نصيباً كبيراً من المعرفة وحظاً وفيراً من التجربة.

تعلم سيد هارتا كيف يعقد الصفقات التجارية، وكيف يستحوذ على مشاعر الناس، وكيف يسري عن نفسه مع النساء، تعلم ارتداء الثياب الفاخرة وإصدار الأوامر إلى الخدم، والاستحمام في مياه معطرة. وتعلم أن يأكل الأطعمة اللذيذة التي أعدت بعناية، وكذلك الأسماك واللحوم والطيور والتوابل والمشهيات وأن يشرب النبيذ الذي جعله كسولاً كثير النسيان.

وتعلم أن يلعب النرد والشطرنج، وأن يتفرج على الراقصات ويحمل على المحفات ويرقد في فراش وثيرة. ولكنه كان يشعر دائماً أنه يختلف عن الآخرين، وأنه أعلى منهم. وكان يراقبهم دائماً في شيء من الاحتقار، بشيء من الازدراء الساخر قليلاً، بذلك الترفع الذي يشعر به السامانى دائماً إزاء الأشخاص الدنيويين. فإذا انزعج كاماسوامي، أو أحس أنه أهين أو

اضطربت أعماله التجارية، كان سيد هارتا ينظر إليه ساخراً. بيد أن سخريته وشعوره بالتفوق أخذا يقلان شيئاً فشيئاً دون أن يلحظ ذلك مع مرور المواسم والأعوام. ذلك أن سيد هارتا نفسه اكتسب تدريجياً مع نمو ثرواته ـ بعضاً من سمات غمار الناس، وشيئاً من صبيانيتهم وقلقهم. ومع ذلك فقد كان يحسدهم. وكلما صار مثلهم ازداد حسده لهم. كان يحسدهم على الشيء الوحيد الذي ينقصه وهم يملكونه: شعور الأهمية الذي عاشوا به حيواتهم وعمق مسراتهم وأحزانهم والسعادة القلقة، وإن تكن عذبة ـ التي تتسم بها قدرتهم المستمرة على الحب.

كان هؤلاء الناس في حالة حب دائمة لأنفسهم ولأطفالهم وللمجد أو المال مع المشاريع أو الأمل. بيد أن هذه الألوان من الحب لم يتعلمها منهم، هذه المتع والحماقات الطفولية، ولم يتعلم منهم إلا الأشياء السخيفة التي يحتقرها فحسب.

وكان يحدث في أغلب الأحيان بعد ليلة مرحة أن يرقد في فراشه إلى ساعة متأخرة من النهار وهو يشعر بالخمول والنصب.

ولا يلبث أن يشعر بالضيق ونفاد الصبر، عندما يضجره كاماسوامي بمتاعبه. وكان يضحك بصوت مرتفع عندما يخسر في لعبة النرد. وكان وجهه لا يزال أذكى وألمع من وجوه الآخرين ولكنه نادراً ما يضحك.. واكتسى وجهه تدريجياً بالتعبيرات

التي توجد غالباً على وجوه الأثرياء ـ تعبيرات البطر والسقم، والقرف، والخمول، وانعدام الحب. وهكذا زحف إلى نفسه ذلك السقام الروحي الذي يعنيه الأغنياء.

وكالحجاب أو كغمامة رقيقة، استقر ضرب من السأم على روح سيد هارتا.. بطيئاً تزداد كثافته قليلاً كل يوم، وتشتد ظلمته قليلاً كل شهر، ويتثاقل قليلاً عاماً بعد عام. وكما يبلى الثوب الجديد مع الزمن ويحول لونه الزاهي، وتلطخه البقع والأوساخ، وتتسل حواشيه، وتنحل فيه هنا وهناك المواضع، فكذلك شاخت حياة سيد هارتا الجديدة التي بدأها بعد افتراقه عن "جوفيندا". وعلى هذا النحو نفسه حال لونها وبهت رونقها مع مرور الأعوام، وتراكمت عليها الغصون والبقع، وأخذ انقشاع الوهم والغثيان المنتظرين المختبئين في الأعماق يطلان هنا وهناك من حين لآخر. ولم يلحظ سيد هارتا شيئاً من ذلك، ولكنه لاحظ فحسب أن الصوت الداخلي المشرق الواضح الذي استيقظ في نفسه ذات مرة والذي كان يهديه دائماً في أحرج ساعاته، قد لزم الصمت.

لقد اقتنصته الدنيا: الشهوات والطمع والكسل، وأخيراً تلك الرذيلة التي احتقرها وازدراها دائماً على أنها أحمق الرذائل وهي حب الاقتناء. لقد أوقعت به أخيراً في حبالها الممتلكات

والمقتنيات وألوان الثراء. لم تعد لعباً ولهواً بالنسبة إليه، بل أصبحت أغلالاً وإصرا. وسلك سيد هارتا درباً غريباً ملتوياً في هذا الانحدار الأخير الوضيع عبر لعبة الميسر. فمنذ أن انقطع سيد هارتا عن أن يكون بقلبه من السامانا، بدأ يلعب النرد مراهناً بالمال والجواهر في اندفاع متزايد، وهي لعبة كان يشارك فيها من قبل مبتسماً لا مبالياً بوصفها عادة شائعة بين أوساط الناس. وكان لاعباً جباراً لا يجرؤ على مجاراته غير القليلين نظراً لارتفاع مراهناته وتهوره.

وكان يقامر نتيجة لحاجة تخامر قلبه، إذ يستمد متعة عميقة في تبديد تلك الأموال اللعينة وبعثرتها. فما من طريقة أخرى يستطيع أن يعلن بها في وضوح واستهزاء عن احتقاره للثراء.. ذلك الإله الزائف الذي يعبده رجال الأعمال. وهكذا كان يقامر بمبالغ ضخمة غير مبق على شيء مبغضاً نفسه، ساخراً منها، يربح الآلاف ويلقى بالآلاف ويخسر الأموال والجواهر، ويخسر منزلاً ريفياً كان يملكه. ويربح مرة أخرى ويخسر ثانية.

كان يحب هذا القلق.. هذا القلق الرهيب المستبد الذي كان يعانيه أثناء لعبة النرد، أثناء لحظة التعلق في المراهنات الكبيرة. أحب هذا الشعور وسعى إلى تجديده باستمرار، وإلى

مضاعفته وتنشيطه. ففي هذا الشعور وحده كان يجد نوعاً من السعادة، ضرباً من الإثارة، لوناً من الحيوية المرتفعة وسط هذا الوجود المتخم الفاتر الماسخ. وكان يكرس نفسه بعد كل خسارة ضخمة ـ للحصول على ثروات جديدة، ويجري متلهفاً وراء الصفقات، متعجلاً المدينين بالدفع لأنه يريد أن يقامر مرة أخرى، ويريد أن يبعثر مرة أخرى ويريد أن يظهر احتقاره للثروة مرة أخرى. وأمسى سيد هارتا نافد الصبر عندما تصيبه الخسائر، وفقد صبره مع المدينين الذين يتلكأون في الدفع، ولم يعد عطوفاً على المتسولين، ولم تعد به رغبة لتقديم الهدايا والقروض إلى المساكين. وأصبح وهو الذي يراهن بعشرة آلاف على رمية نرد واحدة وهو يضحك ـ أصبح أكثر تشدداً ودناءة في العمل، وكان يحلم أحياناً بالنقود أثناء الليل، وأينما استيقظ من هذا السحر البغيض، وحيثما رأى وجهه منعكساً في المرآة المعلقة على جدار حجرة نومه، وقد شاخ وازداد قبحاً، وكلما استولى عليه الخزي والغثيان، هرب مرة أخرى.. هرب إلى لعبة جديدة من ألعاب المصادفة.. هرب مرتبكاً إلى الشهرة، إلى الخمر، ومنها عائداً مرة أخرى إلى اكتساب الثروة وتكديسها. واستنفد نفسه في هذه الحلقة الجهنمية الحمقاء، وأصبح عجوزاً عليلاً.

وهنا تراءى له حلم أعاد إلى ذاكرته كل شيء. كان بصحبة كماله في المساء، في حديقة ملذاتها الحبيبة. وكانا يجلسان تحت شجرة يتبادلان الحديث. كانت كماله تتحدث حديثاً جدياً. وكان الحزن والتعب يختفيان وراء كلماتها. وطلبت منه أن يتحدث إليها عن جوتاما، لأنها لم تكن قد سمعت منه ما فيه الكفاية: أي صفاء كان في عينيه، أي سلام وجمال في شفتيه، وأي رشاقة في ابتسامته، وأي سلام في تصرفاته كلها. وطفق يحدثها طويلاً عن بوذا المستنير حتى تنهدت كماله وقالت: "ذات يوم، وربما كان عاجلاً ـ سأصبح تابعة لهذا البوذا، وسوف أمنحه حديقة ملذاتي، لأجد المأوى الأمين في تعاليمه".

ولكنها كانت تغويه بعد ذلك بمفاتنها، وتضمه أثناء لعبة الحب في حماسة بالغة، وفي عنف وافتراس شديدين، وكأنما تريد أن تستقطر منه مرة أخرى آخر قطرة عذبة من هذه المتعة العابرة.

ولم يتبين سيد هارتا قط من قبل بمثل هذا الوضوح الغريب كيف ترتبط العاطفة بالموت ارتباطاً وثيقاً. وحينئذ كان يرقد إلى جوارها، ووجه كماله قريب من وجهه، ولأول مرة قرأ بوضوح تحت عينيها وبالقرب من طرفي ثغرها علامةً حزينةً ـ تجاعيد وغضون رقيقة، علامة تذكر بالخريف وبالشيخوخة.

وقد لاحظ سيد هارتا نفسه، وكان في الأربعينات من عمره ـ شعيرات بيضاء متناثرة هنا وهناك في شعره الأسود. وكان الإرهاق مسطوراً على وجه كماله الجميل، الإرهاق للاستمرار في طريق لا ينتهي إلى غاية بهيجة.. الإرهاق وبدايات الشيخوخة، وخوف محتجب لم يذكر بعد، وربما لم يصل بعد إلى مستوى الوعي ـ خوف من خريف الحياة ـ خوف من الشيخوخة، خوف من الموت. وتنهد وهو يتركها بقلب مثقل بالتعاسة والخوف المستسر.

وأنفق سيد هارتا الليل في منزله بين الخمر والراقصات، متظاهراً بأنه متفوق على رفاقه، وهو لم يعد ذلك حقاً. وكان قد احتسى كثيراً من الخمر، فآوى إلى فراشه بعد منتصف الليل، متعباً، وإن يكن مضطرباً، قانطاً تكاد الدموع تفر عن عينيه. وحاول أن ينام، ولكن بلا جدوى كان قلبه مفعماً بالتعاسة، حتى شعر أنه لا يستطيع الاحتمال. وكاد يختنق بشعور من الغثيان استولى عليه كأنه نوع من الخمر مرير المذاق، أو كلحن موسيقي غاية في العذوبة، ولكنه سطحي، أو كابتسامة الراقصات العذبة، أو العطر الناعم الذي يفوح من شعورهن ونهودهن. ولكنه كان فوق هذا وذاك مشمئزاً من نفسه، ومن شعره المعطر، ومن رائحة الخمر التي تفوح من فمه،

ومن مظهر جلده الأملس المترهل. وكشخص أتخم بالطعام والشراب، ثم تقيأ متألماً، فأحس بالراحة، ودَّ سيد هارتا القلق لو استطاع أن يعتق نفسه بزفرة واحدة رهيبة من تلك الملذات أو العادات ـ من هذه الحياة المبتذلة كلها. ولم يعالج الخمر إلا عند مطلع النهار وعند التباشير الأولى للنشاط خارج منزله في المدينة، وحينئذ استولت عليه لحظات أشبه بالنسيان. ولاحت له إمكانية الموت. وفي خلال هذا الوقت، عرضت له رؤيا.

كانت كماله تحتفظ بطائر صغير مغرد نادر الوجود، في قفص صغير من الذهب. وعن هذا الطائر دارت رؤياه، فهذا الطائر الذي كان يغرد عادة في الصباح كف عن التغريد، وأخلد إلى الصمت فلما أدهشه ذلك، أقبل على القفص ونظر إلى داخله. كان الطائر ميتاً، وقد رقد متصلباً على الأرض. وأخرجه سيد هارتا، وأمسك به لحظة في راحته ثم ألقى به بعيداً في الطريق. وفي هذه اللحظة نفسها استولى عليه الرعب، وأخذ قلبه يخفق خفقاناً أليماً متواصلاً، وكأنه ألقى مع هذا الطائر الميت كل ما هو خير وقيم في نفسه.

وما كاد يفيق من حلمه، حتى طغى عليه شعور بحزن عميق. فبدا له أن أضاع حياته على نحو تافه لا قيمة له، ولم يستبق شيئاً ذا أهمية حيوية شيئاً ثميناً جديراً بالاحتفاظ، ووقف وحيداً، كرجل تحطمت سفينته على الشاطئ.

وذهب سيد هارتا حزيناً إلى روض من رياض المتعة التي يمتلكها. فأغلق أبوابه وجلس تحت شجرة من أشجار المانجو، وهو يشعر بالفزع والموت في قلبه، واستجمع شتات أفكاره شيئاً فشيئاً، وأخذ يستعرض على صفحة ذهنه حياته كلها ابتداء من أيامه البكرة التي يستطيع أن يتذكرها. متى كان سعيداً حقاً؟ متى أحس بالفرحة حقاً؟ أجل أحس بذلك عدة مرات، ذاقه في أيام الصبا عندما فاز بثناء البراهمة عليه، وحينما تفوق على أقرانه، وعندما بز في إنشاد الأشعار المقدسة، وفي مناقشة العلماء، وعندما شارك في تقديم القرابين. ثم أحس في قلبه بصوت يقول له: "أمامك طريق عليك أن تسلكه.. الآلهة في انتظارك". وتذكر أيضاً عندما كان شاباً يدفعه هدفه أن يحلق باستمرار إلى الدخول ثم إلى الخروج من جمهرة الباحثين من أمثاله، عندما جاهد جهاداً شاقاً ليفهم تعاليم البراهمة، عندما كانت كل معرفة جديدة يكتسبها يتولد عنها ظمأ جديد. ثم وسط هذا التعطش ووسط جهوده يكفر مرة أخرى: "امض قدماً إلى الأمام، قدماً إلى الأمام، هذا هو سبيلك". سمع هذا الصوت عندما هجر بيته، وآثر حياة السامانا، وسمعه مرة أخرى عندما انفصل عن السامانا وذهب إلى "الكامل" ـ بوذا ـ وسمعه أيضاً عندما تركه من أجل المجهول. كم انقضى من الوقت منذ أن

استمع إلى هذا الصوت، أو منذ أن حلق صاعداً إلى آمال أخرى؟ كم كان سبيله مسطحاً مقفراً موحشاً! كم أنفق من الأعوام الطوال دون أن يكون له هدف سامق، دون أي ظمأ، دون أية نشوة، قانعاً بالملذات الصغيرة، دون أن يرضى حقاً! لقد حاول ـ دون أن يفطن لذلك ـ واشتاق طيلة تلك الأعوام أن يكون مثل هؤلاء الناس جميعاً، مثل أولئك الأطفال، ومع ذلك كانت حياته أتعس وأفقر كثيراً من حياتهم، ذلك لأن أهدافهم لم تكن أهدافه، وأحزانهم لم تكن أحزانه، هذا العالم كله الذي يعيش فيه أناس كاما سوامي لم يكن غير مباراة بالنسبة إليه، رقصة، ملهاة يتفرج عليها المرء، كماله وحدها هي التي كانت عزيزة عليه، ذات قيمة بالنسبة إليه، ولكن أما زالت كذلك؟ أما زال في حاجة إليها ـ وهل ما زالت في حاجة إليه؟ ألا يلعبان لعبة لا نهاية لها؟ أمن الضروري أن يعيش لهذه اللعبة؟

كلا، هذه اللعبة تدعى "سانسارا" لعبة للأطفال، لعبة يستمتع بها المرء إذا لعبها مرة.. مرتين.. عشر مرات ـ ولكن، أتستحق أن يلعبها المرء باستمرار؟

وهنا أدرك سيد هارتا أن اللعبة قد انتهت، وأنه لم يعد في استطاعته أن يلعبها بعد الآن. سرت رعدة في بدنه، وأحس كأن شيئاً قد مات.

وجلس طيلة ذلك اليوم تحت شجرة المانجو يفكر في أبيه، ويفكر في جوفيندا، ويفكر في جوتاما. هل ترك هذا كله ليصبح كاما سوامي؟

جلس هناك حتى هبط الليل. وعندما رفع عينيه وأبصر النجوم، قال في نفسه: ها أنذا أجلس تحت شجرتي، وفي روض متعتي. وابتسم قليلاً. أكان من الضروري، أكان من الصواب، ألم يكن من الحمق أن يملك شجرة مانجو وروضة؟

لقد انتهى ذلك كله من نفسه. مات هذا أيضاً في نفسه، ونهض مودّعاً شجرة المانجو وروض المتعة. ولما لم يكن قد تناول أي طعام ذلك اليوم، فقد أحس بجوع شديد. وخطر له منزله في المدينة وحجرته وسريره، والمائدة الحافلة بأنواع الطعام. فابتسم متعباً، وأنغض رأسه، وقال وداعاً لهذه الأشياء جميعاً.

وفي هذه الليلة نفسها، غادر سيد هارتا الحديقة والمدينة إلى غير رجعة. وحاول كاما سوامي زمناً طويلاً العثور عليه، معتقداً أنه وقع في أيدي اللصوص. أما كماله، فلم تحاول البحث عنه، ولم تصبها الدهشة عندما علمت أن سيد هارتا قد اختفى.

ألم تتوقع هذا دائماً؟ أليس هو من السامانا، بلا بيت، مجرد مهاجر؟ لقد أحست بذلك أكثر من أي وقت مضى في لقائهما الأخير، وفي وسط عذابها لخسارته، ابتهجت لأنها ضمته

تلك الضمة العنيفة إلى قلبها في تلك المناسبة الأخيرة، ولأنها شعرت بأنه امتلكها امتلاكاً تاماً، وسيطر عليها تمام السيطرة.

وعندما تناهت إليها الأنباء الأولى عن اختفاء سيد هارتا، سارت إلى النافذة التي تحتفظ عندها بطائر مغرد نادر في قفص من ذهب.

وفتحت باب القفص وأخرجت الطائر وأطلقت سراحه.. وظلت تتابع الطائر المختفي برهة بناظريها. ومنذ ذلك اليوم، انقطعت عن استقبال الزوار، وأغلقت عليها أبواب منزلها. واكتشفت بعد فترة من الزمن أنها تحمل طفلاً نتيجة لاجتماعها الأخير بسيد هارتا.

الفصل الثامن

على ضفاف النهر

أخذ سيد هارتا يتجول في الغابة بعيداً عن المدينة وهو لا يعلم سوى شيء واحد هو أنه لا يستطيع الرجوع، وأن الحياة التي عاشها تلك السنين الطوال قد انقضت بعد أن ذاقها واستنزفها إلى درجة الغثيان. لقد مات الطائر الغريد. لقد كان موته الذي لاحت له رؤياه هو الطائر الذي يعشش في قلبه. كانت الدنيا قد أوقعته في حبائلها فلا يستطيع منها فكاكاً. وكان الغثيان والموت يحاصرانه من كل جانب، وكأنه إسفنجة تمتص الماء حتى الامتلاء. كان مفعماً بالسأم والتعاسة والموت، ولم يعد في العالم شيء يجتذبه، أو يمنحه السرور والعزاء. كان يصبو مشتاقاً إلى النسيان.. وإلى السكينة وإلى الموت. لو أن ومضة من البرق صعقته، لو أن فهداً هجم عليه والتهمه، لو أن هناك نوعاً من الخمر أو السم يمنحه النسيان ويجعله ينسى، ويجعله ينام

دون أن يصحو أبداً! أكان هناك نوع من القذارة لم يلطخ به نفسه، أو ضرب من الألم والحماقة لم يرتكبه، أو أي دنس لم يلوث به روحه، ولم يكن هو وحده مسؤولاً عنه؟ أما زال من الممكن أن يعيش؟ أمن الممكن أن يلتقط أنفاسه مرة بعد أخرى، وأن يخرجها، وأن يشعر بالجوع وأن يأكل مرة أخرى، وينام ويضاجع النساء؟ ألم تستنفد هذه الدورة وتنتهي بالنسبة إليه؟

وكان سيد هارتا قد بلغ النهر الكبير الذي يشق الغابة. نفس النهر الذي عبر به الملاح عندما كان لا يزال شاباً، قادماً من قرية جوتاما. وتوقف إزاء النهر، ولبث متردداً على شاطئه. كان التعب والجوع قد نالا منه كل منال. ولماذا يوغل في الغابة أكثر من ذلك؟ وإلى أين.. ولأي غرض.. لم تعد لديه غاية.. ولم يبق غير شوق عميق موجع إلى أن ينفض عن روحه هذا الحلم المشوش كله، وأن يبصق هذه الخمرة الفاسدة، وأن يضع حداً لهذه الحياة المرة الأليمة.

وكانت هناك شجرة على ضفة النهر.. شجرة جوز الهند، فمال سيد هارتا عليها، وطوق جذعها بذراعيه، ونظر إلى المياه الخضراء التي تجري من تحته. نظر إلى أسفل. فملأته تماماً رغبة في أن يدع نفسه يهوي إلى الماء ليبتلعه، وعكس الهواء البارد في

الماء ذلك الخواء الرهيب في روحه.. أجل إنه شارف النهاية، ولم يبق له إلا أن يمحو نفسه، وأن يحطم الهيكل الفاشل الذي تتألف منه حياته، وأن يقذف به بعيداً، ولتستهزئ به الآلهة.

هذه هي الفعلة التي يتشوق إلى ارتكابها: أن يحطم الشكل الذي يمقته. ألا ليت الأسماك تبتلعه، هذا الكلب الذي هو سيد هارتا، هذا الرجل المجنون، هذا الجسد الفاسد العفن، هذه الروح البليدة التي أساء استعمالها. ألا ليت الأسماك والتماسيح تلتهمه، وليت الشياطين تمزقه إرباً إرباً..

وتفرس في النهر بوجه شائه، فأبصر وجهه منعكساً في المياه، فبصق عليه، وسحب ذراعه من جذع الشجرة، واستدار قليلاً حتى يستطيع أن يسقط رأسه في المياه ليختفي في النهاية تحتها.. فانحنى مغمض العينين صوب الموت.

وحينئذ تناهى إليه من مكان ناء من روحه.. من ماضي حياته المتعبة.. تناهى إليه صوت. كان مؤلفاً من كلمة واحدة من مقطع واحد. همس به إلى نفسه دون تفكير أنه البداية القديمة.. والنهاية لكل الصلوات البرهمية.. "أوم" المقدس ومعناها الواحد الكامل. أو "الكمال". وفي هذه اللحظة عندما بلغ صوت "أوم" أذني سيد هارتا، استيقظت فجأة روحه الغافية، وأدرك ما في فعلته من جنون.

استبد بسيد هارتا رعب عميق. إذن فهذا هو ما انتهى إليه. كان ضائعاً تمام الضياع، مشتتاً كل التشتت، خالياً من كل عقل عندما سعى إلى الموت. هذه الرغبة. هذه الرغبة الطفولية كانت قد رسخت في نفسه: أن يجد السلام بتحطيم جسده. إن كل عذابات الأيام الأخيرة، وكل انقشاع للوهم، وكل يأس.. هذا كله لم يؤثر فيه تأثير اللحظة التي وصلت فيها كلمة "أوم" إلى وعيه، وأدرك خسته وجريمته، "أوم" نطق بها داخل نفسه، وكان على وعي ببراهما، وبأن الحياة لا تفنى. وتذكر كل ما قد نسيه وكل ما هو إلهي.

غير أن ذلك لم يستغرق غير لحظة خاطفة، ومضة. وخر سيد هارتا عند أقدام شجرة جوز الهند مغلوباً بالتعب على أمره. ووضع رأسه على جذور الشجرة، وهو يتمتم باسم "أوم". واستغرق في نوم عميق، كان نومه عميقاً، خالياً من الأحلام. لم ينم مثل هذا النوم منذ زمن بعيد. وعندما استيقظ بعد ساعات طويلة، خيل إليه أن عشرة أعوام قد انقضت، وسمع خرير المياه العذبة، فلم يدر أين هو أو ماذا أتى به إلى هذا المكان. ورفع بصره، فأدهشه أن يرى الأشجار والسماء فوقه. فتذكر مكانه وكيف جاء إليه، وأحس برغبة في أن يبقى حينما كان فترة طويلة. وبدأ الماضي له الآن متشحاً بحجاب، بعيداً كل البعد، تافهاً كل

التفاهة. لم يكن يعرف إلا أن حياته السابقة قد انتهت في اللحظة الأولى التي عاد فيها إلى وعيه، بدت له حياته السابقة تجسيداً بعيداً كولادة مبكرة لذاته الحاضرة، وأنها تفيض بالغثيان والتعاسة، وأنه أراد تحطيمها. ولكنه ثاب إلى نفسه عند ضفة النهر، تحت شجرة جوز الهند، وعلى شفتيه كانت كلمة "أوم" المقدسة، وأن النوم قد غلبه حينذاك. وعندما استيقظ نظر إلى العالم نظرة إنسان جديد. وهمس لنفسه بكلمة "أوم" في عذوبة وهي الكلمة التي نام أثناء ترديدها، ولهذا خيل إليه أن نومه كله كان عبارة عن نطق طويل عميق لكلمة "أوم"، عن تفكير فيها، عن اندماج ونفاذ في أوم في "اللامسمى"، في الإلهي.

ما كان أروعه من رقاد! إنه لم ينم في حياته نوماً أنعشه وجدده، وأعاد إليه شبابه كهذا النوم. لعله قد مات حقيقة، وربما غرق ثم ولد من جديد على هيئة أخرى. كلا لقد تعرف على نفسه.. وتعرف على يديه وقدميه، والمكان الذي رقد فيه، و"الذات" التي استقرت في صدره، سيد هارتا، صاحب الإرادة الذاتية والفردية.. بيد أن هذا السيد هارتا قد تغير على نحو ما، تجدد، لقد نام نوماً رائعاً، واستيقظ يقظة عجيبة، وبعيدة.. طلعة..

وأنهض سيد هارتا نفسه. فأبصر ناسكاً يرتدي عباءة صفراء، حليق الرأس، جالساً قبالته في وضع المفكر.. فنظر إلى الرجل الذي خلت رأسه ولحيته من الشعر. ولم يطل نظره إليه ليتعرف في هذا الناسك على جوفيندا، صديق صباه جوفيندا الذي لجأ إلى بوذا الجليل. وكان جوفيندا قد تقدم به العمر هو أيضاً، وإن تبدت على وجهه سماته القديمة: اللهفة، والولاء وحب الاستطلاع والقلق. ولكن عندما شعر جوفيندا بنظرته إليه، ورفع عينه لينظر إليه، أدرك سيد هارتا أن جوفيندا لم يتعرف عليه.. ولاحت على جوفيندا إمارات السرور أن وجده مستيقظاً. وكان من الواضح أنه جلس هناك طويلاً ينتظر يقظته، وإن لم يكن يعرفه.

قال سيد هارتا: "كنت نائماً، ولكن كيف أتيت إلى هنا؟" فأجاب جوفيندا: "لقد كنتَ نائماً، وليس من الخير أن تنام في مثل هذه الأماكن حيث تزحف الأفاعي، وتتسلل الحيوانات من الغابة. أنا واحد من أتباع جوتاما الجليل.. بوذا ساكيامووني، وأنا في رحلة حج مع عدد من رجال الطائفة، وأبصرت بك ترقد نائماً في مكان خطر... ومن ثم حاولت إيقاظك، ورأيت أنك تنام نوماً عميقاً.. فتخلفت عن إخواني، وقعدت إلى جانبك ولكن يبدو أنني أنا الذي أردت أن أراقبك قد غلبني النعاس أنا نفسي. لقد

غلبني الإجهاد فساءت مراقبتي لك. ولكنك استيقظت الآن. ولهذا يجب أن أمضي لألحق بإخواني..".

ـ "أشكرك أيها الساماني على حراسة نومي.. إن أتباع المستنير طيبون جداً. ولكنك تستطيع الآن أن تواصل مسيرتك".

ـ "سأذهب، لعلك ترعى نفسك".

ـ "أشكرك أيها الساماني".

ـ وانحنى جوفيندا وقال: "وداعاً..".

قال سيد هارتا "وداعاً يا جوفيندا".. فتسمر الناسك في مكانه.

ـ "معذرة يا سيدي.. كيف عرفت اسمي". وهناك ضحك سيد هارتا.

ـ "أنا أعرفك يا جوفيندا منذ كنت في بيت أبيك وفي مدرسة البراهمة، وعند تقديم القرابين وفي إقامتنا مع السامانا. وفي تلك الساعة التي قضيناها في بستان جيتافينا، عندما حلفت يمين الولاء للمستنير..".

فصاح جوفيندا "أنت سيد هارتا، الآن عرفتك ولا أفهم لماذا لم أتعرف عليك فوراً. تحياتي يا سيد هارتا، ما أعظم سروري برؤيتك مرة أخرى!".

ـ "أنا أيضاً مسرور برؤيتك ثانية. لقد حرستني أثناء نومي. وأنا أشكرك مرة أخرى، وإن لم أكن في حاجة إلى حارس لي، أين تمضي يا صديقي؟".

ـ "لست ذاهباً إلى مكان محدد... فنحن النساك راحلون دائماً على الطريق، باستثناء.. الفصل المطير نحن ننتقل دائماً من مكان إلى آخر، ونعيش تبعاً للقاعدة وننادي بالبشارة، ونجمع الصدقات. ثم نمضي في سبيلنا.. والحال على هذا المنوال دائماً. ولكن إلى أين تذهب يا سيدي هارتا؟".

قال سيد هارتا: "إن حالي لا يختلف عن حالك يا صديقي. لن أذهب إلى أي مكان.. إنما أنا عابر سبيل فحسب.. إنني أقوم برحلة حج".

قال جوفيندا: "تقول إنك تقوم برحلة حج، وأنا أصدقك، ولكن سامحني يا سيد هارتا، إذ لا تبدو في منظر الحاج، فأنت ترتدي ثياب رجل غني، وتنتعل حذاء على آخر طراز، وشعرك المعطر ليس شعر حاج.. ليس شعر السامانا".

ـ "أنت دقيق الملاحظة يا صديقي.. وأنت ترى كل شيء بعينيك الثاقبتين.. ولكني لم أقل لك أنني من السامانا. قلت إنني أقوم برحلة حج.. وهذا حق..".

قال جوفيندا: "تقوم برحلة حج. ولكن قلائل هم الذين يحجون في مثل هذه الثياب.. وفي مثل هذا الحذاء، هذا الشعر.. وأنا الذي تجولت سنوات طوالاً، لم أرَ قط مثل هذا الحاج".

- "أنا أصدقك يا جوفيندا. ولكنك ها أنت ذا تلتقي اليوم بمثل هذا الحاج مرتدياً هذه الثياب. منتعلاً مثل هذا الحذاء. تذكر يا عزيزي جوفيندا أن عالم المظاهر عالم عابر، وأن طراز ثيابنا وشعرنا عابر إلى أقصى حد. بل إن شعرنا وأجسامنا أنفسها عابرة. وقد كانت ملاحظتك في محلها. فأنا أرتدي ثياب رجل غني، وأنا أرتديها لأنني كنت رجلاً غنياً. وأنا أصفف شعري مثل رجال الأناقة والمجتمع الراقي.. لأنني كنت واحداً منهم".

- "وماذا أنت الآن يا سيد هارتا؟".

- "لست أدري. ومعرفتي بذلك لا تزيد عن معرفتك.

إنني على الطريق. كنت رجلاً ثرياً، ولكنني لم أعد الآن كذلك. أما ماذا سأكون غداً، فهذا ما لا أعرفه".

- "هل فقدت ثروتك؟".

- "أجل فقدتها أو هي التي فقدتني. لست متأكداً إن عجلة المظاهر تدور سراعاً يا جوفيندا. أين سيد هارتا البرهمي؟ وأين سيد هارتا السامانى؟ وأين سيد هارتا الرجل الغني؟. العابر سرعان ما يتغير يا جوفيندا. أنت تعلم ذلك".

وظل جوفيندا ينظر مرتاباً إلى صديق صباه وقتاً طويلاً. ثم انحنى أمامه كما يفعل الإنسان لأصحاب الجاه. ثم مضى في سبيله.

وراقبه سيد هارتا مبتسماً وهو يرحل. كان لا يزال يحبه. هذا الصديق المخلص الذي لا يبارحه القلق. وفي هذه اللحظة، في هذه الساعة الرائعة، وبعد هذا النوم المدهش الذي تخلله "أوم" كيف يملك نفسه عن أن تحب شخصاً ما أو شيئاً ما. هذا هو بعينه السحر الذي وقع له أثناء نومه.. و"أوم" الذي شاع في أعطافه.. لقد أحب كل شيء، وكان مفعماً بعشق بهيج لكل ما يقع عليه بصره. وبدا له أن هذا هو السبب الذي كان من أجله عليلاً في حياته السابقة ـ لأنه لم يكن يستطيع أن يحب شيئاً أو أحداً...

وبابتسامة، شيَّع سيد هارتا الناسك المرتحل. وكان النوم قد رد إليه شيئاً من قواه.. ولكنه كان يعاني جوعاً هائلاً. إذ لم يأكل شيئاً منذ يومين. وكان زمن تحمله للجوع قد انقضى منذ عهد بعيد. وتذكر ذاك العهد في شيء من الاضطراب، وفي شيء من الضحك أيضاً. وتذكر أنه تفاخر في ذلك العهد بثلاثة أشياء أمام كماله.. ثلاثة فنون نبيلة لا تقهر هي: الصيام والانتظار والتفكير. كانت هذه هي ممتلكاته.. جاهه وسطوته.. عكازه

الراسخ.. ولقد تعلم هذه الفنون الثلاثة ولا شيء سواها خلال أعوام شبابه المجتهدة المثابرة.. ولكنه فقدها الآن، ولم يعد يملك شيئاً منها بعد. لا الصيام، ولا الانتظار، ولا التفكير. لقد استبدل بها الآن أتعس الأشياء.. الأشياء العابرة. ملذات الحس... الحياة الناعمة وعالم الجاه والثراء. لقد سلك طريقاً غريباً ويبدو الآن أنه قد أصبح حقاً شخصاً عادياً..

وأمعن سيد هارتا الفكر في حالته. فوجد أنه من العسير عليه أن يفكر، ولم يجد في نفسه رغبة في هذا حقاً. ولكنه أرغم نفسه.

والآن بعد أن أفلتت مني كل تلك الأشياء العابرة مرة أخرى، ها أنذا أقف ثانية تحت الشمس كما وقفت ذات مرة طفلاً صغيراً لا أملك شيئاً. ولا شيئاً أعرف، ولم أتعلم شيئاً. يا للغرابة... الآن، وبعد أن فارقني الشباب واشتعل الرأس شيباً، ووهن العظم مني، ها أنذا أبدأ الآن كما يبدأ الطفل. وكان لابد أن يبتسم مرة أخرى. أجل، إن مصيره عجيب، إنه يعود القهقري، وهو يقف مرة أخرى في هذا العالم خاوي الوفاض. عارياً جاهلاً. ولكنه لم يأسَ على ذلك، كلا، بل أحس برغبة شديدة في أن يضحك من نفسه، ومن هذا العالم الأحمق الغريب.

قال في نفسه: إن الأشياء تسير معك إلى الخلف.. وضحك. وما إن قال ذلك حتى ومضت نظرته على النهر، فرأى أن النهر يجري باستمرار إلى الخلف، ويغني مرحاً. فأعجبه إعجاباً شديداً، وابتسم مبتهجاً إليه. أليس ذلك هو النهر الذي أراد يوماً أن يغرق نفسه فيه.. منذ مئات السنين. أم كان كل ذلك حلماً..

ما أغرب ما كانت حياته! لقد تسكع خلال مسالك عجيبة. عندما كنت صبياً أبحث مشغولاً بالآلهة والقرابين وعندما كنت شاباً كنت عاكفاً على النسك، مولعاً بالتفكير والتأمل. كنت عاكفاً أبحث عن "براهما" وكنت أوقّر الأبدي في "أتمان"، وفي شبابي كنت منجذباً إلى التفكير، وعشت في الغابات، وقاسيت الهجير والزمهرير، وتعلمت الصوم، وتعلمت كيف أقهر جسدي. ثم اكتشفت مبهوراً تعاليم "بوذا" الجليل، وأحسست أن المعرفة ووحدة العالم.. تجري في عروقي مجرى الدم. ولكني شعرت أنني مجبر على الافتراق عن بوذا، وعن المعرفة العظيمة فرحلت، وتعلمت مسرات الحب من كماله، والتجارة من كاما سوامي، وجمعت الأموال وبعثرت الأموال. واكتسبت ذوقاً للمأكل الفاخر، وتعلمت كيف أنشط حواسي.. وكان لابد لي من إنفاق أعوام عديدة على هذا النحو لكي أفقد ذكائي، وقدرتي على التفكير، ولكي أنسى كل

شيء عن وحدة الأشياء.. أليس من الحق أنني تحولت ببطء وعبر انحرافات كثيرة من رجل إلى طفل؟ من مفكر إلى شخص عادي؟.. ومع ذلك كان هذا الطريق صالحاً، ولم يمت الطائر الذي كان في صدري، ولكن يا له من طريق! كان لا بُدَّ من أن اجتاز كل هذا الغباء، كل هذه الرذائل، كل هذه الأخطاء.. كل هذا الغثيان وانقشاع الوهم والأحزان، لكي أصبح طفلاً من جديد.. ولكي أبدأ من جديد.. ولكن من الصواب أن يكون الأمر على هذا النحو. إن عيني وقلبي يؤيدان هذا... كان لا بُدَّ أن أجرب اليأس، وأن أغوص إلى أعمق الأعماق الذهنية. إلى أفكار الانتحار لكي أجرب الفضل الإلهي، ولأستمع إلى "أوم" مرة أخرى، ولكي أنام بعمق مرة أخرى، ولكي أستيقظ منتعشاً مرة ثانية. كان لا بُدَّ أن أصير أحمق مرة أخرى، لكي أجد الإنسان في نفسي. كان لابد أن أقترف الإثم، لأعيش ثانية. فأين سيقودني طريقي بعد ذلك، هذا الطريق غبي، يسير في دوائر لولبية، وربما في دوائر..

ولكن أي اتجاه سلكه فسوف أتبعه..

وشعر بسعادة غامرة تشيع في باطنه.

وسأل نفسه من أين أتت؟ وما سبب هذا الشعور بالسعادة؟ هل صدرت عن نومتي الطويلة الطيبة التي أفادتني كل هذه

الفائدة؟ أم من كلمة "أوم" التي نطقت بها؟ أو لأنني هربت ولأن هروبي قد اكتمل، ولأنني أصبحت أخيراً حراً مرة أخرى، ووقفت كالطفل تحت السماء؟ آه. كم كان هذا الفرار سديداً، هذا التحرر!! كان يشيع دائماً في المكان الذي هربت منه جو من الدهون المعطرة، والتوابل والإفراط والتراخي، كم أبغضت دنيا الترف.. والخمر والميسر.. كم أبغضت نفسي لبقائي طويلاً في ذلك العالم البشع، كم كرهت نفسي وعاندتها وسممتها وعذبتها، وجعلت نفسي عجوزاً دميماً. لن أعتبر سيد هارتا ذكياً مرة أخرى وأنا الذي تخيلت ذلك مزهواً ذات مرة. بيد أن هناك شيئاً واحداً أحسنت صنعه. شيئاً يسرني. ويجب على أن امتدحه. لقد وضعت الآن حداً لذلك البغض الذاتي.. لهذه الحياة الخاوية الحمقاء.. إنني أثني عليك يا سيد هارتا.. لأنك بعد كل سنوات الحماقة تلك الكثيرة خطرت لك فكرة طيبة، ولأنك حققت شيئاً ولأنك استمعت مرة أخرى إلى الطائر الذي في صدرك يغني، فاتبعته.

وهكذا أثنى على نفسه. وكان مسروراً من نفسه، وأنصت متعجباً إلى أمعائه التي أخذت تزوم من الجوع، وشعر أنه تذوق شطراً من الحزن حتى الثمالة، ولهذا لفظت الحزن نفسه.. شطراً من البؤس خلال تلك الأعوام الماضية، حتى استهلكها إلى درجة

اليأس والموت.. ولكن هذا كله حسن. فقد كان من الممكن أن يمكث فترة أطول مع كاما سوامي، وأن يجمع المال ويبعثره، وأن يطعم بدنه، ويهمل روحه. وكان من الممكن أن يقيم زمناً أطول في ذلك الجحيم الناعم الوثير. لو لم يحدث هذا. هذه اللحظة.. التي تخلو تماماً من كل أمل.. لحظة اليأس والتوتر التي انحنى فيها على المياه المتدفقة، متأهباً للانتحار، هذا اليأس، وهذا الغثيان المفرط الذي عاناه لم يهزمه تماماً. فالطائر، والنبع الصافي، والصوت الداخلي.. ما زالت أحياء. وهذا هو سبب بهجته والسر الذي أضحكه، والضوء الذي يشع من وجهه تحت شعره الرمادي.

وقال في نفسه: من المستحسن أن يجرب المرء كل شيء بنفسه. فلقد تعلمت وأنا طفل أن ملذات الدنيا ومتاعها نوع من الغرور.. عرفت ذلك فترة طويلة، ولكنني لم أجربه إلا منذ فترة قريبة. والآن لا أعرف هذه الحقيقة بعقلي فحسب.. بل بعيني وقلبي وأحشائي.. وهذا شيء طيب أن أعرف تلك الحقيقة.

وفكر ملياً في التغيير الذي اعتراه.. وأنصت إلى الطائر يغرد في سعادة. لو أن هذا الطائر المستقر في أعماقه قد مات، أيكون في ذلك هلاكه؟ كلا، شيء آخر قد مات فيه، شيء ظل طويلاً يتمنى أن يموت. أليس هو الشيء الذي أراد أن يحطمه خلال سنوات الزهد المتحمسة. ألم يكن، هذا الشيء هو ذاته؟

ذاتـه الضـئيلة المخيفـة، المزهـوة الـتي صـارعها طيلـة تلـك السنين.. والتي كانت تعود فتغلبه دائماً، والـتي تعود للظهور مـرة بعـد أخـرى، فتسـلبه السـعادة وتملـؤه بـالخوف؟ أليسـت هـي الـتي ماتت نهائياً اليوم في الغابة على مرأى من هذا النهر البهيج؟ أليس بسبب موتها أصبح الآن كالطفل، مليئاً بالثقة والسعادة، خالياً من كل خوف؟

وأدرك سيد هارتا الآن أيضاً لماذا جاهد "الذات" عبثاً عنـدما كـان برهميـاً ناسـكاً.. ذلـك أن كثـرة المعرفـة أعاقتـه، قصـائد مقدسـة أكثـر مـن الـلازم.. طقـوس لتقـديم القـرابين أكثـر مـن اللازم.. إهـلاك للجسـد أكثـر من الـلازم.. وأفعـال ونضـال أكثـر من اللازم. كان مليئاً بالعجرفة، وكـان دائماً أذكـى الجميـع، وأشدهم تلهفاً، يسبق الآخرين إلى كهنوتيته، إلى عجرفتـه... إلى عقلانيته.. كانت هذه الذات تقعد متحفـزة هنـاك.. وأخـذت تنمـو على حين اعتقد أنه يدمرها بالصوم والـتكفير.. والآن أدرك كـل هذا.. وتأكد من أن الصوت الداخلي كان على حق، وأن مـا مـن مـدرس يمكـن أن يجلـب إليـه الخـلاص، وهـذا مـا دفعـه إلى الخـوض في خضـم العـالم، وإلى أن يفقـد نفسـه في الجـاه والنسـاء والأموال. وهذا هو ما دفعه لأن يكون تاجراً ومقامراً.. وسكيراً، وصـاحب أمـلاك، إلى أن مـات فيـه الناسـك والسـاماني. وهـذا هـو

السبب الذي جعله يقاسي تلك الأعوام البشعة، ويعاني الغثيان، ويتعلم درس الجنون من الحياة الجوفاء الباطلة حتى النهاية، حتى يصل إلى اليأس المرير، وذلك حتى يمكن لسيد هارتا منتهب الملذات، سيد هارتا رجل الأملاك ـ أن يموت. ولقد مات واستيقظ سيد هارتا جديد من نومه، وسوف يطعن هذا أيضاً في السن ويموت. سيد هارتا شيء عابر، والأشكال كلها عابرة، أما اليوم فهو شاب، طفل، هذا السيد هارتا الجديد ـ وكان في غاية من السعادة.

عبرت هذه الأفكار بذهنه. واستمع مبتسماً إلى أمعائه، وأصغى شاكراً ـ لطنين نحلة.. ونظر إلى أمعائه، وإلى النهر المتدفق مغتبطاً. لم يجتذبه نهر في حياته كما اجتذبه هذا النهر، ولم يجد خريراً للماء الجاري ومظهراً له أجمل من هذا المظهر وذاك الخرير. وبدا له كأن النهر يضمر شيئاً خاصاً يريد أن يفضي به إليه.. شيئاً لا يعرفه.. شيئاً ما زال في انتظاره. لقد أراد سيد هارتا أن يغرق نفسه في هذا النهر، واليوم أغرق فيه سيد هارتا العجوز المتهالك اليائس. وأحس السيد هارتا الجديد بحب عميق لهذا الماء المتدافع، واعتزم ألا يتركه مرة أخرى بهذه السرعة.

الفصل التاسع

الملاح

سـأبقى بجانـب هـذا النهـر. إنـه نفـس النهـر الـذي عبرتـه في طريقي إلى المدينة. حين أخذني لعبوره ملاح ودود. سـأذهب إليـه. إن سـبيلي قـادني ذات مـرة من كوخـه إلى حيـاة جديـدة هـي الآن عتيقـة ميتـة. فلعـل طريقـي الحاضـر.. حيـاتي الجديـدة، تبـدأ مـن هنـاك. نظـر سـيد هارتـا في عشـق إلى المـاء المتـدفق.. إلى الخضـرة الشـفافة.. إلى الخطـوط البللوريـة الـتي تحـدَّد تصـميمها العجيـب. فرأى لآلئ متألقة تصعد من الأعماق، وفقاقيع تسـبح علـى المـرآة، وزرقة السماء تنعكس عليها. ونظر إليه النهر بـألف عـين خضـراء وبيضاء وبللورية وزرقاء. كم يعشق هذا النهر! وكم يسحره! ومـا أعمق عرفانه بجميله! وفي قلبه أنصت إلى الصـوت الـذي اسـتيقظ حديثاً يتكلم ويقول له: أحبب هذا النهر، وامكث جواره، وتعلم منه. أجل إنـه يريـد أن يتعلم منـه، وأن يصـغى إليـه. وخيـل إليـه أن من يفهم هذا النهر وأسراره ـ كائناً من كـان ـ سـيفهم المزيـد..

المزيد من الأسرار.. بل الأسرار جميعاً. ولكنه لم يشاهد اليوم إلا سراً واحداً من أسرار النهر.. سراً استحوذ على روحه.. رأى أن الماء يتدفق ويتدفق باستمرار، ومع ذلك كان هناك دائماً.. كان الماء هو نفسه دائماً.. ومع ذلك فقد كان جديداً في كل لحظة. من ذا الذي يستطيع أن يفهم هذا وأن يتصوره؟ إنه لم يكن يفهمه، وإنما كان على وعي فحسب بشبهة معتمة.. ذكرى شاحبة.. أصوات إلهية.

ونهض سيد هارتا. وخزات الجوع أصبحت لا تطاق.. وتسكع متأملاً على ضفة النهر، مصغياً لخرير المياه، مستمعاً للجوع الذي ينخر بدنه. وعندما وصل إلى المعبر، كان الزوق رابضاً هناك.. وكان المراكبي الذي عبر بالساماني الشاب عرض النهر ذات مرة واقفاً في الزورق..

وتعرف عليه سيد هارتا مرة أخرى.. وكان العمر قد تقدم به كثيراً هو أيضاً.

سأله: "هل تعبر بي النهر؟".

وبانت الدهشة على وجه المراكبي عندما رأى رجلاً من علية القوم وحيداً راجلاً. فأخذه في زورقه.. وشرع في الرحيل.

قال سيد هارتا: "لقد اخترت حياة رائعة. فما أبدع أن يعيش المرء بالقرب من هذا النهر وأن يبحر عليه كل يوم!"

فابتسم الملاح، وتأرجح في لطف.

ـ "شيء رائع كما تقول يا سيدي، ولكن أليست كل حياة.. كل عمل شيئاً رائعاً؟" ـ "ربما. ولكنني أحسدك على حياتك".

ـ "أوه" سرعان ما يفتر إعجابك بها.. إنها لم تخلق للناس الذين يرتدون ثياباً أنيقة". فضحك سيد هارتا: "لقد حكم عليّ اليوم من ثيابي فعلاً، وكنتُ موضع اشتباه.. هل تقبل مني هذه الثياب.. التي أراها عبئاً ثقيلاً، إذ يجب أن أخبرك بأنني لا أملك نقوداً أدفعها لك لعبورك بي صفحة النهر".

فضحك المراكبي: "السيد يمزح بلا شك".

ـ "أنا لا أمزح يا صديقي. لقد عبرت بي النهر ذات مرة دون أن تتقاضى أجراً. فأرجوك أن تفعلها اليوم أيضاً. وخذ ثيابي مقابل ذلك".

ـ "وهل سيمضي السيد بلا ثياب؟!"

ـ "أوثر ألا أمضي أبعد من ذلك. وأوثر أن تمنحني شيئاً من الثياب القديمة.. وأن تستبقيني هنا كمساعد لك.. أو بالأحرى صبيك، إذ ينبغي أن أتعلم كيف أقود الزورق".

ونظر الملاح إلى الغريب متفحصاً برهة طويلة، ثم قال أخيراً:

ـ "لقد عرفتك. أنت الذي نمت في كوخي ذات مرة. لقد مضى على ذلك زمن طويل.. ربما كان أكثر من عشرين سنة.

عبرت بك النهر وافترقنا صديقين طيبين. ألم تكن من الساماناً؟ لا أستطيع أن أتذكر اسمك.."

ـ "اسمي سيد هارتا. كنت من الساماناً عندما رأيتني آخر مرة".

ـ "مرحباً بك يا سيد هارتا. اسمي ڤازوديڤا. وأرجو أن تكون ضيفي اليوم. وتنام أيضاً في كوخي وتخبرني من أين أتيت، ولماذا تشعر بكل هذا التعب من ثيابك الغالية".

وكانا قد بلغا منتصف النهر. فأخذ ڤازوديڤا يجدف تجديفاً أقوى بسبب التيار..

وكان يجدف هادئاً بذراعين مفتولتين وهو يراقب طرف الزورق.

وجلس سيد هارتا يراقبه. وتذكرت كيف أحس بميل إلى هذا الرجل ذات مرة في أيامه الأخيرة مع الساماناً. وقبل شاكراً دعوة ڤازوديڤا. وعندما بلغا شاطئ النهر ساعده على إرساء الزورق في أمان، ثم قاده ڤازوديڤا إلى الكوخ.. وقدم إليه خبزاً وماء تناولهما سيد هارتا في متعة. وكذلك التهم حبة المانجو التي قدمها إليه ڤازوديڤا...

وفي ساعة متأخرة من النهار، عندما جنحت الشمس إلى المغيب، جلسا فوق جذع شجرة على ضفة النهر. وقص عليه سيد هارتا قصة نشأته وحياته، وكيف رآه اليوم بعد تلك الساعة من ساعات اليأس. واستمرت القصة حتى ساعة متأخرة من الليل.

وكان ڤازوديڤا ينصت في اهتمام شديد. فاستمع إلى كل شيء عن نشأته وطفولته، وعن دراساته وتطلعاته ومساراته، واحتياجاته.. وكانت إحدى الفضائل الكبرى للملاح ـ وما أندرها فضيلة بين الناس ـ أنه يحسن الاستماع. ودون أن ينطق ڤازوديڤا بكلمة، أحس المتحدث أنه استوعب كل كلمة في هدوء وترقب دون أن يفوته شيء.. ولم يكن ينتظر أي شيء بصبر نافد.. ولا يوجه لوماً أو إطراء، وإنما ينصت فحسب. وأحس سيد هارتا بأن من أروع الأشياء أن يكون للمرء مثل هذا المستمع الذي يمكن أن يستغرق في حياته الخاصة ومجاهداته وأحزانه.

ومهما يكن من أمر، فعندما اقترب سيد هارتا من نهاية قصته، وعندما أخبره عن الشجرة القائمة على ضفة النهر، وعن يأسه العميق، وعن "أوم" المقدس، وكيف أحس بعد نومه بذلك العشق للنهر، أنصت الملاح بانتباه مضاعف.. مستغرقاً تمام الاستغراق، وقد أغمض عينيه.

وعندما انتهى سيد هارتا وامتد الصمت بينهما برهة طويلة، قال ڤازوديڤا: "لقد حدث ما فكرت فيه. لقد تحدث إليك النهر، وأظهر صداقته لك أنت أيضاً. إنه يتحدث إليك هذا طيب.. طيب جداً.. امكث معي، يا سيد هارتا. يا صديقي كانت لي زوجة، وكان سريرها إلى جوار سريري، ولكنها ماتت منذ أمد بعيد. وقد عشت وحدي منذ ذلك الحين. تعال وعش معي.. هناك مكان وطعام لكلينا".

قال سيد هارتا: "أشكرك. أشكرك واقبل. كما أشكرك يا ڤازوديڤا على حسن إصغائك، قلة من الناس تعرف كيف تنصت، ولم التق بشخص يستطيع أن يفعل ذلك مثلك.. وسأتعلم منك أيضاً في هذا المجال".

قال ڤازوديڤا: "سوف تتعلم ذلك، ولكن، ليس مني، لقد علمني النهر أن أستمع. وستتعلم منه أنت أيضاً. النهر يعرف كل شيء. ويستطيع المرء أن يعرف منه كل شيء. لقد تعلمت من النهر فعلاً أن من الخير أن يجاهد المرء إلى أسفل، أن يغوص، وأن يبحث في الأعماق. وسيصبح سيد هارتا الغني المرموق مجذّفاً. سيد هارتا البرهمي الفقيه.. ملاحاً، هذا ما تعلمته من النهر أيضاً. وستتعلم الشيء الآخر أيضاً". وبعد سكتة طويلة، قال سيد هارتا: "وما هو هذا الشيء الآخر يا ڤازوديڤا؟" فنهض

ڤازوديڤا قائلاً: "لقد تأخر الوقت، دعنا نذهب للنوم.. لا أستطيع أن أخبرك عما يكون ذلك الشيء الآخر، يا صديقي سوف تكتشفه ولعلك تعرفه فعلاً. إنني لست من رجال العلم، ولم أحسن الكلام والتفكير، كل ما أحسنه هو الإصغاء، وأن أكون مؤمناً، وخلاف ذلك لم أتعلم شيئاً، ولو أنني كنت أستطيع الحديث والتعليم، فربما أصبحت معلماً. ولكني لست إلا ملاحقاً وعملي هو أن أعبر بالناس هذا النهر. وقد عبرت بآلاف الناس، ولم يكن نهري بالنسبة إليهم غير عقبة في طريقة رحلتهم. كانوا يسافرون من أجل المال أو العمل، أو من أجل حفلات الزفاف، أو رحلات الحج... وكان النهر يعترض طريقهم.

"وكان الملاح هناك ليجتاز بهم سريعاً تلك العقبة.. ومع ذلك كان بين هؤلاء الآلاف قلة من الأفراد.. أربعة أو خمسة لم يكن النهر في نظرهم عقبة.. لقد استمعوا إلى صوته، وأنصتوا إليه. فأصبح النهر مقدساً بالنسبة إليهم، كما هو بالنسبة لي.. دعنا الآن نذهب إلى الفراش، يا سيد هارتا".

وأقام سيد هارتا مع الملاح. وتعلم منه كيف يعني بالزورق. وعندما لم يكن ثمة ما يفعل عند المرسى، كان يعمل في حقل الأرز مع ڤازوديڤا، ويجمع الحطب، ويقطف الثمار من أشجار الموز. وتعلم صناعة المجاديف، وإصلاح الزورق، وصناعة السلال،

وكان سعيداً بكل ما يصنعه ويتعلمه. ومرت الأيام والشهور سراعاً. ولكنه تعلم من النهر أكثر مما يستطيع ڤازوديڤا أن يعلمه.. تعلم منه باستمرار، تعلم منه قبل كل شيء كيف ينصت، كيف ينصت بقلب ساكن، بروح مترقبة مفتوحة، دون انفعال، دون شهوة، دون حكم، دون آراء.

وعاش سعيداً مع ڤازوديڤا، وكانا يتبادلان الكلمات من حين إلى آخر.. كلمات قلائل موزونة، فلم يكن ڤازوديڤا من عشاق الكلمات. ونادراً ما كان سيد هارتا ينجح في إغرائه بالكلام، وسأله ذات مرة: "هل تعلمت أيضاً ذلك السر من النهر، وهو أنه يوجد شيء اسمه الزمان؟" وشاعت ابتسامة مُشرقة فوق وجه ڤازوديڤا، قال: "أجل يا سيد هارتا. أهذا ما تعنيه؟! أن النهر في كل مكان في الوقت نفسه.. في المنبع وفي المصب.. في الشلال والمرسي، في التيار والمحيط وفي الجبال، وفي كل مكان، وأن الحاضر هو وحده الموجود بالنسبة إليه، لا ظل الماضي ولا ظل المستقبل".

قال سيد هارتا: "هذا ما أعنيه.. وعندما تعلمت ذلك استعرضت حياتي، وكانت هي أيضاً نهراً. الرجل الناضج، وسيد هارتا الشيخ العجوز لم يفصل أحدهما عن الآخر إلا الظلال فحسب، دون أن يفصل بينهما الواقع.. وحيوات سيد هارتا السابقة لم تكن أيضاً في الماضي، كما أن موته ورجوعه

إلى براهما لن يكونا في المستقبل، لم يوجد شيء في الماضي، ولن يوجد شيء في المستقبل، ولكل شيء واقع وحضور". كان سيد هارتا يتحدث مسروراً. فهذا الكشف جعله في غاية من السعادة. أليست الأحزان جميعاً في الزمان إذن، وكل تعذيب للنفس، وكل خوف من الزمان، ألا يتم التغلب على المصاعب جميعاً، وعلى الشر في العالم حالما يتغلب المرء على الزمان، حالما يبدد الإنسان الزمان؟ كان يتحدث مبتهجاً، غير أن ڤازوديڤا اكتفى بابتسامة مشرقة، وبإطراقة من رأسه، علامة الموافقة. وربت على كتف سيد هارتا وعاد إلى عمله.

وذات مرة أخرى عندما انتفخت أوداج النهر خلال الموسم المطير، وأخذ يزمجر عالياً، قال سيد هارتا: "أليس من الحق يا صديقي، أن للنهر أصواتاً كثيرة جداً؟ أليس له صوت ملك ومحارب وثور، وطائر ليلي، وامرأة حبلى، ورجل متنهد، وآلاف الأصوات الأخرى؟".

فأومأ ڤازوديڤا موافقاً: "هذا صحيح. إن أصوات المخلوقات جميعاً في صوته..".

وواصل سيد هارتا حديثه: "تعلم أية كلمة ينطقها عندما ينجح المرء في الاستماع إلى أصواته الآلاف العشرة جميعاً في وقت واحد؟".

فضحك ڤازوديڤا ضحكة مرحة، وانحنى صوب سيد هارتا، وهمس في أذنه باسم "أوم" المقدس. وكان هذا هو ما سمعه سيد هارتا.

وكلما مضى الزمن بدأت ابتسامته تشبه ابتسامة الملاح.. فكادت تكون مثلها إشراقاً، وامتلاءً بالسعادة، ووضاءة خلال عشرات الغضون الصغيرة، وطفولية، وشيخوخة. وكان كثير من المسافرين الذين يرون الملاحين معاً يعتقدون أنهما شقيقان. وفي كثير من الأحيان، كانا يجلسان معاً في المساء على جذع الشجرة عند شاطئ النهر، وهما ينصتان صامتين إلى الماء الذي لم يكن بالنسبة إليهما مجرد ماء بل صوت الحياة.. صوت الوجود.. صوت الصيرورة الدائمة.

وكان يحدث في بعض الأحيان أثناء استماعهما للنهر، أن تخطر لهما نفس الأفكار..

وربما كانت عن محادثة بينهما في اليوم السابق، أو عن مسافر شغل مصيره وظروفه عقليهما، أو ربما كانت عن الموت، أو عن طفولتها. وعندما كان النهر يفضي إليهما بشيء حسن في نفس اللحظة كانا ينظران أحدهما إلى الآخر، وهما يفكران نفس الفكرة، وكلاهما سعيد بنفس الإجابة على السؤال نفسه.

كان شيء ما يشيع في المرسى ومن المَلاَّحْين.. شيء شعر به كثير من المسافرين. فقد يحدث أحياناً أن يبدأ مسافر ـ بعد أن ينظر إلى وجه واحد من الملاحين ـ في الحديث عن حياته وعن متاعبه. وقد يعترف بخطاياه، ويطلب العزاء والنصيحة. وقد يحدث أحياناً أخرى أن يطلب شخص آخر السماح له بقضاء المساء معهما للاستماع إلى النهر.. وحدث أيضاً أن أقبل كثير من الفضوليين الذين قيل لهم أن هناك حكيمين أو ساحرين أو قديسين يعيشان عند المرسى. وكان هؤلاء الفضوليون يوجهون أسئلة كثيرة، ولكنهم لا يتلقون عنها أية أجوبة. كما أنهم لا يجدون سحرة أو حكماء، كل ما كانوا يجدونه شيخين صديقين يبدو أنهما مصابان بالبكم، وغرابة الأطوار، والغباء.. وكان الفضوليون يضحكون ويسخرون من حماقة الناس، وسرعة تصديقهم حين ينشرون مثل تلك الشائعات الخرافية.

ومضت الأعوام، دون أن يتناولهما بالذكر أحد. وذات يوم أتى بعض النساك من أتباع جوتاما البوذا وطلبوا أن يجتازوا النهر. وعلم منهم الملاحان أنهم عائدون إلى معلمهم العظيم بأسرع ما يمكن، فقد انتشرت الأنباء بأن المستنير في حالة خطرة من المرض، وربما كان يعاني سكرات الموت الأخيرة ليبلغ الخلاص. ولم يلبث أن وصل فوج آخر من النساك، يتبعه فوج آخر. ولم

يكن النساك وكذلك معظم المسافرين الآخرين يتحدثون عن شيء آخر غير جوتاما وموته الوشيك. وكما يتقاطر الناس من كل حدب وصوب لتكوين حملة حربية أو لمشاهدة تتويج ملك، فكذلك اجتمعوا كأسراب النحل، وكأنما يجتذبهم مغناطيس، ليذهبوا حيث رقد بوذا الجليل على فراش موته، حيث يقع هذا الحدث العظيم، وحيث ينتقل مخلِّص عصر بأكمله إلى رحاب الأبدية.

في هذه الآونة، فكر سيد هارتا ملياً في هذا الحكيم المحتضر الذي نَبَّه صوته الآلاف، صوته الذي استمع إليه هو أيضاً، وملامحه المقدسة الذي نظر إليها أيضاً ذات مرة في رهبة. وكان تفكيره فيه ممتزجاً بالحب. وتذكر سبيله المؤدي إلى الخلاص، وابتسم متذكراً الكلمات التي تفوه بها ذات مرة أثناء شبابه المستنير. وبدت له هذه الكلمات وقحة فجّة، فقد ظل يعرف مدة طويلة أنه لم ينفصل عن جوتاما وإن لم يكن قادراً على قبول تعاليمه. كلا، إن الباحث الصادق لا يستطيع أن يقبل أية تعاليم، إن كان يريد مخلصاً أن يجد شيئاً، بيد أن هذا الذي وجد، يمكن أن يوافق على كل مسلك، وعلى كل هدف، فلا شيء يفصله عن جميع الآلاف الآخرين الذين يحيون في الأبدية، ويتنفسون ما هو إلهي.

وذات يوم بينما كانت أفواج كثيرة من الناس يحجون إلى بوذا المحتضر، كانت كماله أيضاً ـ وهي أجمل الغانيات في زمانها ـ في طريقها إليه. وكانت قد انسحبت من طريقتها السابقة في الحياة، وأهدت حديقتها لنساك جوتاما، ولاذت بتعاليمه، وانتسبت إلى النسوة والمحسنات المنضمات إلى الحجيج، وعندما سمعت بموت جوتاما الوشيك، شرعت في الرحيل على قدميها، مرتدية أبسط الثياب، مصطحبة ابنها. وفي طريقهما، بلغا النهر. غير أن الصبي كان قد أنهكه التعب، فأراد أن يعود إلى البيت ليستريح ويأكل. وكان مشاكساً بكّاء، فكان لزاماً على كماله أن تبقى معه في كثير من الأحيان، فاعتاد أن يضع إرادته في مضاد إرادتها.. وكان عليها أن تطعمه، وأن تهيئ له وسائل الراحة، وأن تؤنبه من حين إلى آخر.. ولم يستطع أن يفهم لماذا تقوم أمه بهذه الرحلة المتعبة التعسة إلى مكان مجهول.. إلى رجل غريب مقدس يحتضر. فليمت. ما شأن الغلام بهذه المسألة؟. ولم يكن الحجيج بعيدين عن مرسى ڤازوديڤا، عندما طلب سيد هارتا الصغير من أمه أن يستريح. وكانت كماله نفسها منهكة. فبينما كان الغلام يأكل إصبعاً من الموز، اضطجعت على الأرض، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وأخلدت إلى الراحة. وفجأة أطلقت صرخة

ألم. فذعر الغلام ونظر إليها. فرأى وجهها شاحباً من الرعب.. فمن تحت ملابسها زحف ثعبان صغير أسود بعد أن عض كماله..

وهرع الاثنان ليلحقا ببعض الناس. وعندما اقتربا من المرسى، انهارت كماله، وعجزت عن المضي إلى أبعد من ذلك. وصرخ الغلام مستنجداً، وهو يقبل أمه في تلك الأثناء ويعانقها..

وانضمت إليه أيضاً في صرخاته المدوية جماعة من الحجيج، حتى تناهت الأصوات إلى ڤازوديڤا الذي كان يقف عند المرسى، فهرول إليهما، وأخذ المرأة بين ذراعيه، وحملها إلى الزورق.. ولحق به الغلام. وسرعان ما وصلوا إلى الكوخ حيث كان يقف سيد هارتا محاولاً إشعال النار. ورفع عينيه فكان أول ما رأى وجه الغلام الذي ذكره تذكيراً غامضاً بشيء ما. ثم رأى كماله التي تعرَّف عليها فوراً، رغم أنها رقدت مغشياً عليها بين ذراعي الملاح.. ثم علم فيما بعد أن الوجه الذي ذكره بشيء ما هو وجه ابنه. وأسرع وجيب قلبه..

وغسل جرح كماله. ولكنه كان قد اسودَّ فعلاً، وكذلك انتفخ جسدها. فأعطيت دواء مقوياً يساعد على إعادة الوعي. فثابت إلى وعيها. وكانت ترق على سرير سيد هارتا، وفي كوخه. وكان سيد هارتا الذي أحبته ذات يوم حباً جماً.. ينحني عليها. وظنت أنها تحلم.. فابتسمت وهي تنظر إلى وجه عشيقها.

وشيئاً فشيئاً، أدركت حالتها، وتذكرت عضة الثعبان فنادت متلهفة على ابنها، وتذكرت سيد هارتا: "لا تخافي.. إنه هنا".

ونظرت كماله في عينيه. كانت تجد مشقة في الكلام والسم يسري في عروقها. قالت: "لقد طعنتَ في السن يا عزيزي، وصرت أشيب. ولكنك مثل السامانى الشاب الذي أتى إليّ في حديقتي بلا ثياب، وبقدمين متربتين. أنت أشد شبهاً به الآن منك عندما تركت كاماسوامي وتركتني. عيناك مثل عينيه يا سيد هارتا. آه.. وأنا أيضاً أصبحت عجوزاً.. عجوزاً.. هل عرفتني؟" فابتسم سيد هارتا: "عرفتك على الفور يا عزيزتي كماله".

وأشارت كماله إلى ابنها وقالت: "وهل عرفته هو أيضاً؟ إنه ابنك".

ثم زاغت عيناها وأغمضتا. وشرع الصبي في البكاء. فأقعده سيد هارتا على ركبته، وتركه يبكي وهو يسوي شعره. ولما نظر إلى وجه الغلام تذكر صلاة برهمية تعلمها يوماً ما عندما كان طفلاً صغيراً. وفي صوت بطيء أغن، شرع في إنشادها، وتواردت عليه الكلمات من الماضي، ومن طفولته، وهدأ الطفل أثناء إنشاده، وإن ظل ينشج قليلاً حتى غلبه النعاس.. فأرقده سيد هارتا على سرير قازوديفا.. بينما وقف هذا الآخر أمام الموقد يطهو أرزاً ونظر إلى سيد هارتا، فابتسم قازوديفا.

قال سيد هارتا في هدوء: "إنها تحتضر.. إنها تحتضر". وأطرق فازوديفا رأسه. وكانت ألسنة اللهيب المشتعلة في الموقد تنعكس على وجه العطوف. واستعادت كماله وعيها. وكان الألم مرتسماً على وجهها. وقرأ سيد هارتا العذاب على وجهها.. وقرأ سيد هارتا العذاب على ثغرها وعلى وجهها الشاحب.. وقرأه هادئاً، منتبهاً، مترقباً مشاركاً لها. وكانت كماله على وعي بذلك. وأخذت نظرتها تبحث عن نظرته.

ونظرت إليه قائلة: "أرى الآن أن عينيك قد تغيرتا أيضاً. لقد صارتا مختلفتين كل الاختلاف، كيف أعرف أنك ما زلت سيد هارتا؟ أنت سيد هارتا، ولكنك مع ذلك لا تشبه".

فلم يتكلم سيد هارتا، بل نظر في عينيها صامتاً. سألته: "هل وصلت إليه؟ هل وجدت السلام؟" فابتسم ووضع راحته على راحتيها..

قالت: "أجل.. إنني أرى ذلك.. وأنا أيضاً سأجد السلام.."

فهمس سيد هارتا: "لقد وجدته".

ونظرت إليه كماله نظرة ثابتة. كانت نيتها تتجه إلى القيام برحلة حج إلى جوتاما لمشاهدة وجهه المستنير، والحصول على شيء من السلام الذي يشع منه. ولكنها لم تجد إلاه.. "أي سيد هارتا". وكان ذلك خيراً لا يقل عن الخير الذي يمكن أن تناله

في حالة مشاهدتها للآخر. كانت تريد أن تقول له هذا، غير أن لسانها لم يعد يطاوع إرادتها. ونظرت إليه صامتة، فرأى الحياة تذوي في عينيها. وعندما فاض الألم الأخير من عينيها، وسرت القشعريرة الأخيرة في بدنها، أغمض جفنيها بأصابعه.

وجلس هناك برهة طويلة شاخصاً على وجهها الميت، وإلى ثغرها.. ثغرها العجوز المتهالك، وإلى شفتيها المتقلصتين. وتذكر كيف شبه شفتيها ذات مرة في ربيع العمر بتينة تم قطافها منذ لحظة. وظل ينظر إلى الوجه الشاحب فترة طويلة مدققاً..

وإلى التجاعيد المكدودة.. ورأى وجهه هو أيضاً شبيهاً به.. شاحباً كشحوبه.. ميتاً كموته. وفي الوقت نفسه شاهد وجهه ووجهها، نضيراً، بشفتين ورديتين، وعينين متحمستين. وطغى عليه شعور بالوجود الحاضر المعاصر. وفي هذه الساعة أحس إحساساً أشد حدة بأن الحياة لا تفنى.. كل حياة، وبأبدية كل لحظة.

وعندما نهض، كان ڤازورديڤا قد أعد له شيئاً من الأرز. غير أن سيد هارتا لم يأكل شيئاً. وفي الحظيرة حيث توجد العنزة، فرش الشيخان شيئاً من القش، ورقد ڤازورديڤا.. أما سيد هارتا، فقد ذهب إلى الخارج، وجلس أمام الكوخ طيلة الليل، مصغياً إلى النهر، مستغرقاً في الماضي، متأثراً ومحصوراً في وقت واحد

بكل مراحل حياته، وكان يقوم من حين إلى آخر، ويمشي إلى باب الكوخ، متصنتاً عسى أن يكون الغلام نائماً.

وفي الصباح الباكر، قبل أن تظهر الشمس خرج ڤازوديڤا من الحظيرة، وسار إلى صديقه ثم قال: "إنك لم تنم".

ـ "كلا يا ڤازوديڤا. وإنما جلست هنا مصغياً للنهر. وقد أفضى إلّي بالكثير، وملأني بأفكار عظيمة عديدة. بأفكار عن الوحدة".

ـ "لقد تعذبت يا سيد هارتا، ومع ذلك أرى أن الحزب لم يدخل قلبك".

ـ "كلا يا صديقي العزيز. ولماذا ينبغي أن أكون حزيناً؟ أنا الذي كنت غنياً وسعيداً، قد أصبحت الآن أغنى وأسعد. وهذا هو ابني يوهب إليّ".

ـ "وأنا أيضاً أرحب بابنك. والآن دعنا نذهب إلى العمل يا سيد هارتا، وأمامنا أعمال كثيرة. لقد ماتت كماله على نفس السرير الذي ماتت عليه زوجتي، وستبنى أيضاً محرقة كماله الجنائزية على نفس الربوة التي بنيت عليها محرقة زوجتي". وبينما كان الغلام نائماً، أخذا يبنيان محرقة جنائزية.

الفصل العاشر

الابن

وشاهد الصبي ـ مذعوراً باكياً ـ دفن أمه. واستمع إلى سيد هارتا ـ وجلا حزيناً ـ وهو يستقبله بوصفه ابنه، ويرحب به في كوخ قازوديفا. وكان يجلس أياماً بأكملها فوق ربوة الأموات شاحب الوجه، شاخص البصر إلى الأفق البعيد، موصداً قلبه، مناضلاً مجاهداً ضد قدره.

وعامله سيد هارتا بكثير من الرعاية، وتركه لوحدته، فقد كان يحترم حزنه. وكان سيد هارتا يدرك أن ابنه لم يعرفه، ومن ثم لا يستطيع أن يحبه كما يحب الابن أباه. ورويداً رويداً، رأى، وتحقق أيضاً، أن الغلام الذي يبلغ من العمر أحد عشر عاماً كان ابن أمه المدلل، وأنه نشأ على عادات الموسرين، وأنه اعتاد على الطعام الفاخر، والفراش الناعم، وعلى إصدار الأوامر إلى الخدم والحشم. وأدرك سيد هارتا أن الصبي المدلل

الحزين لا يمكن أن يكون راضياً ـ هكذا فجأة، في مكان غريب فقير. فلم يضغط عليه، وصنع الكثير من أجله. وكان يدخر له دائماً أفضل الطعام، وكان يأمل أن يكسب مشاعره تدريجياً بالصبر الودود. وكان يعتبر نفسه غنياً سعيداً عندما جاء الصبي إليه، ولكن مع مضى الزمن، وبقاء الطفل على حاله من المشاكسة والبغضاء، وعندما ظهرت غطرسته وتحديه وامتناعه عن أداء أي عمل، وحينما لم يبد منه أي احترام للشيخين، وانكشفت سرقاته من أشجار الفاكهة التي يمتلكها ڤازوديڤا، أخذ سيد هارتا يدرك أن ابنه لم يجلب إليه السعادة والسلام، بل جلب إليه الحزن والكدر. ولكنه كان يحبه ويؤثر الحزن والكدر اللذين يجلبهما هذا الحب على السعادة والسرور بغير الغلام.

ومنذ أن أقام سيد هارتا الصغير في الكوخ، تقاسم الشيخان العمل، فأخذ ڤازوديڤا على عاتقه كل الأعمال التي تتعلق بالمرسى، على حين تحمل سيد هارتا جميع الأعمال التي ترتبط بالكوخ والحقول، لكي يكون بجانب ابنه.

وانتظر سيد هارتا صابراً شهوراً عديدة على أمل أن يتمكن ابنه من فهمه، وقبول حبه، بل ربما بادله هذا الحب. ولاحظ ڤازوديڤا هذا كله شهوراً متعاقبة، وانتظر هو الآخر صامتاً. وذات

يوم بينما كان سيد هارتا الصغير يكرب أباه بتحديه، ومزاجه الحاد، وبتحطيمه طاستي الأرز، انتحى ڤازوديڤا، بصديقه جانباً، وتحدث إليه في المساء. قال "فلتغفر لي. فأنا أحدثك بوصفك صديقي، وأستطيع أن أرى أنك مهموم شقي.. إن ابنك يا صديقي العزيز، يعكر صفو حياتك، وحياتي أنا أيضاً. فالطائر الصغير تعود على حياة مختلفة، على عش مختلف.

"وهو لم يهرب من حياة الترف والمدينة بشعور الغثيان والقرف كما فعلت أنت، لقد ترك هذه الأشياء جميعاً رغم إرادته. ولقد سألت النهر يا صديقي.. سألته مراراً، فضحك النهر، ضحك مني، وضحك منك. كانت أعطافه تهتز ضحكاً من حماقتنا. فالماء ينساب إلى الماء.. والشباب إلى الشباب. إن ابنك لن يكونَ سعيداً في هذا المكان. اسأل النهر وانصت إلى ما يقول".

ونظر سيد هارتا حائراً إلى الوجه العطوف الذي انتشرت على صفحته غضون كثيرة ذات طبيعة خيرة. قال بصوت ناعم: "وكيف أستطيع الافتراق عنه؟ امنحني مزيداً من الوقت يا صديقي العزيز. أنا أجاهد من أجله، وأحاول الوصول إلى قلبه، وسأكسبه بالحب والصبر، وسيتحدث إليه النهر هو أيضاً ذات يوم. إنه مدعوٌّ أيضاً".

وأضحت ابتسامة ڤازوديڤا أكثر دفئاً، قال: "أوه أجل، هو أيضاً مدعو، وهو أيضاً ينتمي إلى الحياة الأبدية. ولكن هل تعرف، أو أعرف أنا، إلام يُدْعى؟ وإلى أي سبيل وإلى أية أفعال وأية أحزان؟ إن أحزانه لن تكون طفيفة، فقلبه متكبر صلب، ومن المحتمل أن يقاسي الكثير، وأن يرتكب كثيراً من الأخطاء، ويقع في كثير من الظلم، ويقارف كثيراً من الخطايا.. أخبرني يا صديقي.. أتقوم بتربية ابنك؟ أهو مطيع؟ أتضربه أم تعاقبه؟".

ـ "كلا يا ڤازوديڤا. أنا لا أفعل شيئاً من هذا".

ـ "أعرف ذلك فأنت لست صارماً معه، وأنت لا تعاقبه. ولا تأمره لأنك تعلم أن اللطف أقوى من القسوة، وأن الماء أقوى من الصخر، وأن الحب أقوى من العنف، حسن جداً.. وأنا أثني عليك، ولكن ربما كنت مخطئاً لأنك لست صارماً معه، ولأنك لا تعاقبه. ألا تقيده بحبك؟ ألا تخجله يومياً بطيبتك وصبرك، وتجعل الأمور أشد عسراً بالنسبة إليه؟ ألا ترغم هذا الغلام المتعجرف المدلل على العيش في كوخ مع شيخين من أكلة الموز، حتى ليعد الأرز بالنسبة إليهما ترفاً. ولا يمكن أن تتفق أفكارهما مع أفكاره، ولهما قلبان عجوزان هادئان، ينبضان نبضاً مختلفاً عن نبض قلبه؟ ألا تراه مقهوراً نزل به العقاب بسبب هذا كله؟".

ونكس سيد هارتا رأسه متحيراً، ثم سأل في وهن: "وماذا ترى أن أفعل؟"

قال ڤازوديفا: "خذه إلى المدينة، خذه إلى بيت أمه، هناك سيكون الخدم. خذه إليهم فإن لم يكونوا هناك خذه إلى معلم، لا بغرض التربية فحسب، ولكن لكي يلتقي بصبيان وبنات آخرين، ويكون وسط العالم الذي ينتمي إليه. ألم تفكّر في هذا قط؟" قال سيد هارتا في أسى: "تستطيع أن تستشف ما في قلبي. لقد فكرت في ذلك كثيراً. ولكن كيف يستطيع وهو يملك مثل هذا القلب المتحجر، أن يسلك في هذه الدنيا؟ ألن يعتبر نفسه أعلى من الآخرين. ألن يفقد نفسه في الملذات والسلطان؟ ألن يكرر جميع أخطاء أبيه؟. ألن يضيع تمام الضياع في سانسارا "عالم الحس والمظاهر"؟".

وابتسم الملاح مرة أخرى، ولمس ذراع سيد هارتا في رفق وقال: "اسأل النهر عن ذلك يا صديقي، وانصت إليه واضحك منه. أتظن حقاً أنك قد ارتكبت ما ارتكبت من حماقات لكي تحمي ابنك منها؟ أتستطيع أن تحمي ابنك من سانسارا وكيف؟ عن طريق التعليم أو الصلوات أو الموعظة؟ يا صديقي العزيز.. أنسيت تلك القصة المثيرة عن سيد هارتا ابن البرهمي التي رويتها لي هنا ذات مرة؟ من الذي حمى سيد هارتا السامانى من

سانسارا.. من الخطيئة و الطمع والحماقة؟! أكان من الممكن أن تعصمه تقوى أبيه، وعظات معلمه، ومعرفته الخاصة، وبحثه الخاص؟ أي والد، وأي معلم يمكن أن يحول بينه وبين أن يحيا حياته الخاصة، من أن يلوث نفسه بالحياة، وأن يحمل نفسه بالإثم وأن يتجرع الشراب المر بنفسه، وأن يجد سبيله الخاص؟ أتظن يا صديقي العزيز أن أحداً يمكن أن يتجنب هذا السبيل؟ ربما كان ابنك الصغير، لأنك تريد أن تراه بمأمن من الحزن والألم وتبدد الأوهام، ولكن لو أنك مت من أجله عشر مرات، فلن تغير من مصيره قيد شعرة".

ولم يكن ڤازوديڤا قد تحدث بمثل هذه الاستفاضة فشكره سيد هارتا في مودة، وذهب إلى الكوخ مضطرب النفس، فلم يستطع النوم. إن ڤازوديڤا لم يخبره بشيء لم يكن قد فكّر فيه فعلاً، وتوصل إليه بنفسه. بيد أن حبه لابنه، وتفانيه وخوفه من فقدانه، كان أقوى من معرفته. هل أفنى قلبه في أي إنسان هذا الفناء التام؟ وهل أحب قط أحداً مثل هذا الحب الأعمى المؤلم البائس، ومع ذلك كله يشعر بالسعادة؟

ولم يستطع سيد هارتا أن يأخذ بنصيحة صديقه، ولم يستطع أن يتخلى عن ابنه. فكان يسمح للغلام أن يتأمر عليه، وألا يرجو له وقاراً. كان صامتاً ينتظر، وفي كل يوم يبدأ

معركته الخرساء بالصبر، ومحاولة اكتساب صداقة ابنه. وكان ڤازوديڤا أيضاً صامتاً ينتظر في مودة وتفهم واحتمال. كان كل منهما أستاذاً في الصبر.

وذات يوم عندما ذكره وجه الغلام بكماله، تذكر سيد هارتا فجأة شيئاً أخبرته به كماله ذات مرة منذ أمد بعيد. قالت له إنك لا تستطيع أن تحب. واتفق معها في هذا الرأي وشبه نفسه بنجم، وشبه الآخرين بأوراق متساقطة. ومع ذلك أحس في كلماتها بشيء من اللوم. والحق أنه لم يفن قط فناء تاماً في شخص آخر بحيث ينسى نفسه. ولم يمر قط بحماقات الحب لشخص آخر. لم يستطع قط أن يفعل شيئاً من هذا...

وحينئذ كان يبدو له أن هذا هو أضخم اختلاف بينه وبين بسطاء الناس. أما الآن بعد أن حضر ابنه، فقد أصبح سيد هارتا واحداً من الناس، لا يشذ عنهم في شيء، كل ذلك بسبب الحزن والحب، كان يحب بجنون، وكان أحمق بسبب الحب. وها هو يعاني متأخراً ولأول مرة في حياته أقوى وأغرب عاطفة، كان يتألم ألماً مبرحاً بسببها. ومع ذلك كان يشعر بالسمو، وبأنه تجدد على نحو ما، وأنه صار أغنى.

كان يشعر حقاً أن هذا الحب، هذا الحب الأعمى الذي يكنه لابنه، هو عاطفة إنسانية جداً، وأنها من قبيل السانسارا،

أي جدول عكر ذي مياه عميقة، وكان يشعر في الوقت نفسه أنه ليس عاطفة تافهة، بل شيئاً ضرورياً ينبع من طبيعته نفسها. وهذه العاطفة، وهذا الألم، وهذه الحماقة، أمور لا بد من معاناتها.

وفي الوقت نفسه، ترك الابن يرتكب حماقاته، وتركه يكافح، وترك أحواله المزاجية المتقلّبة تحط من قدره فلم يكن في أبيه شيء يجتذبه أو شيء يخشاه. كان هذا الأب رجلا طيباً، رجلاً مهذباً عطوفاً، وربما كان رجلاً تقياً، رجلاً مقدساً، ولكن هذه كلها صفات لا تؤسر الغلام. فهذا الأب الذي يحتفظ به في هذا الكوخ الحقير يبعث في نفسه الضجر.

وعندما يجيب على وقاحته بابتسامة، وعلى كل إهانة بالود، وعلى كل شقاوة بالعطف، فهذا هو أبغض مكر يبديه الثعلب العجوز. وكان الغلام يؤثر أن يلجأ أبوه إلى التهديد، وإلى سوء المعاملة.

وجاء يوم أفضى فيه سيد هارتا الصغير بكل ما يدور في ذهنه وحمل على أبيه جهاراً. وكان أبوه قد طلب منه أن يجمع بعض الأغصان. ولكن الغلام أبى أن يبرح الكوخ.. ووقف هناك متحدياً حانقاً، يضرب الأرض بقدميه، ويضم قبضته وصرح بكراهيته.. واحتقاره في وجه أبيه تصريحاً عنيفاً.

صاح مزبداً: "أحضر أغصانك فلست خادمك، وأنا أعلم أنك لا تضربني. فأنت لا تجرؤ على ذلك، ومع ذلك أعرف أنك تعاقبني باستمرار، وتجعلني أشعر أيضاً بضآلة شأني بما تظهره من تقوى وتسامح. وأنت تريدني أن أكون مثلك.. تقياً.. مهذباً حكيماً، ولكنني نكاية فيك، أفضل أن أصبح لصاً قاتلاً وأن أذهب إلى الجحيم، عن أكون مثلك. إنني أمقتك وأنت لست أبي، حتى لو كنت عشيق أمي عشرين مرة!".

كان مشحوناً بالثورة والتعاسة، فوجد متنفساً له في سيل من الألفاظ الوحشية الحانقة يصبه على أبيه. ثم انطلق الغلام مسرعاً إلى الغابة. ولم يعد إلا في ساعة متأخرة من المساء. وفي صباح اليوم التالي اختفى تماماً. وكذلك اختفت سلة صغيرة ذات لونين من الليف كان الملاحان يحتفظان فيها بالعملات النحاسية والفضية التي يتلقيانها أجراً لهما. والقارب ذهب هو الآخر، بيد أن سيد هارتا لمحه على الضفة الأخرى من النهر.. لقد هرب الغلام. قال سيد هارتا: "يجب أن أتعقبه". وكان في حالة من الكرب العظيم منذ أن ألقى الغلام في وجهه بتلك الألفاظ الجارحة في اليوم السابق. "لا يستطيع طفل أن يجتاز الغابة وحده. لا بد أن يصيبه مكروه. لا بد من أن نصنع رمثا يا ڤازوديڤا.. لكي نعبر النهر".

قال ڤازوديڤا: "ستصنع الرمث لكي نبحث عن زورقنا الذي أخذه الغلام بعيداً.. ولكن دعه يذهب يا صديقي، إنه لم يعد طفلاً. ويعرف كيف يعتني بنفسه.. إنه يبحث عن الطريق إلى المدينة، وهو على حق. لا تنس ذلك. إنه يفعل ما أهملته أنت نفسك.. إنه يبحث عن نفسه.. وهو يسلك سبيله الخاص أوه.. يا سيد هارتا.. أستطيع أن أرى معاناتك. معاناتك لألم ينبغي أن يضحك منه المرء. وسرعان ما ستضحك منه أنت نفسك".

ولم يجب سيد هارتا. كان يقبض على البلطة بيديه فعلاً، وشرع في بناء رمث من البامبو. وساعده ڤازوديڤا على ربط الأعواد معاً بحبل من الحشائش، ثم أبحرا عبر النهر الذي حملهما بعيداً. ولكنهما وجها الرمث ضد التيار إلى الشاطئ الآخر. سأل سيد هارتا: "لماذا أحضرت البلطة معك؟" فأجاب ڤازوديڤا: " من الممكن أن يكون مجداف زورقنا قد ضاع..".

غير أن سيد هارتا كان يعلم ما يفكر فيه صديقه. فمن المحتمل أن يكون الصبي قد ألقى المجداف بعيداً، أو كسره على سبيل الانتقام، ولكي يحول بينهم وبين تعقبه. وفعلاً لم يكن هناك مجداف في القارب. وأشار ڤازوديڤا إلى قاع القارب، وابتسم، وكأنما يقول لصديقه: ألا ترى ما يريد ابنك أن يقوله؟ ألا ترى أنه لا يريد أن يتبعه أحد؟ ولكنه لم يقل ذلك في

كلمات، وشرع في صنع مجداف جديد. واستأذنه سيد هارتا ليبحث عن الصبي. فلم يعترض ڤازوديڤا سبيله.

وجاس سيد هارتا خلال الغابة وقتاً طويلاً حتى خطرت له هذه الفكرة، وهي أن بحثه لا طائل وراءه. فإما أن يكون الغلام قد غادر الغابة منذ وقت طويل وبلغ المدينة، أو إذا كان لا يزال في طريقه فسوف يختفي عن متعقبه. وعندما أنعم الفكر.. وجد أنه ليس منزعجاً بسبب ابنه.. فهو يعلم في قرارة نفسه أنه لن يصادف ما يؤذيه، وأن الخطر لا يتهدده في الغابة. ومع ذلك واصل سيره حثيثاً، ولا رغبة في إنقاذه، بل رغبة في رؤيته مرة أخرى... وسار حتى بلغ ضواحي المدينة.

وعندما وصل إلى الطريق الرحيب القريب من المدينة.. وقف ساكناً عند مدخل روض المتعة البديع الذي كان ملكاً لكماله ذات يوم.. حيث رآها فوق مقعد.. وانبعث الماضي حياً أمام عينيه...

فشاهد نفسه مرة أخرى واقفاً هناك.. شاباً سامانياً ملتحياً عارياً قد ملأ الغبار شعره.. ووقف سيد هارتا هناك زمناً طويلاً، ونفذ ببصره خلال البوابة المفتوحة إلى الحديقة.. وهناك شاهد النساك يتسكعون تحت الأشجار الوارفة.. وقف هناك زمناً طويلاً، يفكر، تلوح له الصور، ويستعيد قصة حياته. وقف هناك زمناً طويلاً ينظر إلى النساك، ويرى في مكانهم سيد

هارتا و كماله يسيران تحت الأشجار السامقة... ورأى نفسه وقد أحاطته كماله برعايتها، وهو يتلقى منها القبلة الأولى.. ورأى كيف نظر بغطرسة وازدراء إلى أيامه مع السامانى، وكيف بدا مختالاً متلهفاً في حياته الدنيوية. وشاهد كاما سوامى، والخدم، والمآدب، ولاعبي النرد، والعازفين.. ولاح له طائر كمالة المغرد في قفصه. عاش كل شيء مرة أخرى، وتنفس سانسارا، وعاد مرة أخرى عجوزاً متهالكاً، وأحس ثانية بالغثيان وبالرغبة في الموت، وسمع مرة أخرى "أوم" المقدس.

وبعد أن وقف سيد هارتا فترة طويلة إزاء بوابة الحديقة.. أدرك أن الرغبة التي ساقته إلى هذا المكان رغبة حمقاء، وأنه لا يستطيع مساعدة ابنه، كما لا ينبغي أن يفرض نفسه عليه. وأحس بحب عميق للصبي الهارب. وكأنه جرح، ولكنه أحس في الوقت نفسه أن الجرح لن يتقيح فيه، وإنما سرعان ما يلتئم. ولأن الجرح لم يلتئم في هذه اللحظة، كان حزيناً. وفي مكان الهدف الذي أحضره إلى هنا بحثاً عن ابنه، لم يكن سوى الفراغ فحسب. وجلس على الأرض وقد استبد به الحزن. أحس أن شيئاً يموت في قلبه، لم يعد يرى السعادة أو أي هدف له...

جلس هناك مكتئباً ينتظر. لقد تعلم هذا من النهر.. أن ينتظر وأن يصبر. وأن ينصت. جلس يصغي في الطريق الأغبر..

يصغي إلى قلبه الذي يخفق مجهداً حزيناً.. منتظراً أن يأتيه صوت.. ورقد هناك مرهف السمع ساعات طوالاً، لا تلوح له الرؤى، غائصاً في الفراغ تاركاً نفسه تغوص دون أن يبصر مخرجاً.. وعندما اشتد عليه الجرح، همس بكلمة "أوم"، وملأ نفسه بهذه الكلمة.. وأبصر به النساك الذين يتجولون في الحديقة. ولما كان قد رقد هنا ساعات عديدة، واجتمع الغبار على شعره الأشيب.. فقد أقبل عليه أحد النساك.. ووضع أمامه إصبعين من الموز.. بيد أن الرجل العجوز لم يره.

وأيقظته من غفوته قد تلمس كتفه. وتعرف على هذه اللمسة الحانية الحبيبة. فثاب إلى وعيه. ونهض محيياً ڤازوديڤا الذي كان تعقبه. وعندما أبصر وجه ڤازوديڤا الحنون، ونظر إلى غضون ضحكته الصغيرة، وفي عينيه المتألقتين، ابتسم هو أيضاً. ورأى الآن إصبعي الموز إلى جانبه... فالتقطهما، وأعطى واحداً للملاح، وأكل الآخر.. ثم ذهب صامتاً مع ڤازوديڤا خلال الغابة مرة أخرى عائداً إلى المرسى. ولم يتحدث أحد منهما عما حدث.. كما لم يذكر أحد منهما اسم الغلام، أو يشير إلى هربه، أو إلى الجرح. واتجه سيد هارتا على سريره في الكوخ.. وعندما تقدم إليه ڤازوديڤا.. بعد برهة لناوله شيئاً من لبن جوز الهند، ألفاه نائماً.

الفصل الحادي عشر

أوم

ظل الجرح ينزف زمناً طويلاً. وكان سيد هارتا يعبر النهر بمسافرين كثيرين يصحبون غبناً أو ابنة. فما كان يستطيع أن يتمالك نفسه من أن يحسدهم، أو يمنع نفسه عن التفكير: الآن، فهناك أناس كثيرون يملكون هذه السعادة العظمى ـ فلماذا لم أكن أنا؟ حتى الأشرار واللصوص وقطاع الطرق لهم أطفال يحبونهم، ويحبهم أطفال، إلا أنا! وعلى هذا النحو الطفولي الذي يتنافى مع المنطق كان يفكر حينذاك. وهكذا ازداد الشبه بينه وبين بسطاء الناس.

إنه ينظر الآن إلى الناس في ضوء مختلف عن ذي قبل: إنها ليست نظرة ذكية جداً، أو متكبرة جداً، ولكنها مع ذلك، أو من أجل ذلك، أكثر دفئاً وتعاطفاً، وحباً للتعرف.

وعندما يحمل الآن في زورقه الصنف العادي من المسافرين عبر النهر: رجال الأعمال والجنود والنساء، يشعر بأنهم لم يعودوا غرباء عنه كما كانوا من قبل.. وهو وإن لم يكن يفهم أو يشاطرهم أفكارهم وآراءهم، إلا أنه كان يشاطرهم دوافع حياتهم ورغباتها. ومع أنه بلغ مرتبة عالية من ضبط النفس، وتحمل جرحه الأخير في رباطة جأش، فقد شعر الآن وكأن هؤلاء البسطاء من الناس أخوة له. ولم تعد ألوان غرورهم وشهواتهم وتفاهاتهم تبدو له خالية من المعنى، بل أصبحت شيئاً مفهوماً جديراً بالحب، بل بالاحترام. هناك حب الأم الأعمى لطفلها، والفخر الأعمى الأحمق لأب يزهو بابنه الوحيد، والتطلعات العمياء المتلهفة التي تنظر بها امرأة شابة تافهة للزينة وإعجاب الرجال. هذه الدوافع والرغبات الصغيرة البسيطة الحمقاء.. كلها، وإن تكن قوية حيوية عارمة إلى أقصى حد، لم تعد تبدو تافهة في نظر سيد هارتا. فمن أجلها رأى الناس يعيشون ويصنعون أشياء عظيمة. يسافرون ويشنون الحرب، ويعانون، ويتحملون ما لا يطاق، ومن أجل هذا أحبهم. وشاهد الحياة والحيوية، وما لا سبيل إلى فنائه، ورأى براهما في كل رغباتهم واحتياجاتهم. هؤلاء الناس جديرون بالحب والإعجاب في ولائهم الأعمى، وفي قوتهم العمياء، وإصرارهم الأعمى. وفيما عدا شيئاً واحداً صغيراً.. شيئاً ضئيلاً صغيراً، لم يكن ينقصهم شيء مما يملكه الحكيم والمفكر، وهذا هو الوعي بوحدة

الحياة جميعاً. وكثيراً ما راود الشك سيد هارتا فيما إذا كانت هذه المعرفة.. هذه الفكرة على مثل هذه القيمة العظمى، ألا يمكن أن تكون هي أيضاً ضرباً من التملق ـ الذاتي الطفولي للمفكرين الذين ربما كانوا مجرد أطفال مفكرين.. إن إناس هذه الدنيا يتساوون من المفكرين في كل مجال آخر، بل يتفوقون عليهم في كثير من الأحيان، كما تبدو الحيوانات في تصرفاتهم العنيدة المستقيمة في حالات الضرورة متفوقة على بني الإنسان..

وفي أعماق سيد هارتا، أخذت معرفة حقيقة الحكمة والهدف لسعيه الطويل، تنمو وتنضج رويداً رويداً. إنها ليست سوى إعداد للروح.. نوع من القدرة.. فن خفي للتفكير والشعور، وتنفس أفكار الوحدة في كل لحظة من لحظات الحياة. هذه الفكرة نضجت فيه نضجاً بطيئاً، وانعكست في وجه ڤازوديڤا العجوز الطفولي: الانسجام ومعرفة الكمال الأبدي للعالم والوحدة..

بيد أن الجرح ما زال واخزاً.. فما برح سيد هارتا يفكر في ابنه في حنين ومرارة، ويرعى حبه وشعوره بالحنان نحوه، فلينخر فيه الألم كما يشاء، وليكابد كل حماقات الحب.. ذلك أن اللهيب لم يطفئ نفسه..

وذات يوم، حينما كان الجرح يوخزه وخزاً أليماً، أخذ سيد هارتا يجدف عبر النهر، وقد استهلكه الحنين، فخرج من الزورق بغرض الذهاب إلى المدينة للبحث عن ابنه. وكان النهر ينساب في عذوبة ورقة، فقد كان في موسم الجفاف. غير أن صوته كان يرن رنيناً عجيباً.. كان يضحك. أجل، كان يضحك ضحكة متميزة. كان النهر يضحك بوضوح ومرح من الملاح العجوز. ووقف سيد هارتا جامداً. وانحنى فوق الماء مرهفاً أذنيه علّه يسمع بوضوح أشد.. فشاهد وجهه منعكساً في المياه المتحركة بهدوء. وكان في هذا الانعكاس شيء يذكره بشيء نسيه. وعندما انعكس وجهه على صفحة الماء.. تذكر.. كان وجهه يشبه وجه شخص آخر. كان يعرفه ويحبه. بل يخشاه. إنه يشبه وجه أبيه.. البرهمي.. وتذكر كيف أرغم أباه ذات يوم ـ وكان شاباً حينذاك ـ أن يدعه يذهب للانضمام إلى الزهاد، وكيف ودعه وارتحل، ولم يعد بعد ذلك أبداً.. ألم يعاني أبوه أيضاً نفس الألم الذي يعانيه الآن من ابنه؟ ألم يمت أبوه منذ مدة ـ وحيداً دون أن يرى ابنه مرة أخرى. ألم يتوقع هذا المصير نفسه؟ أليست هذه ملهاة.. شيئاً غريباً. هذا التكرار هذا السير للحوادث في دائرة مقدرة؟؟

وضحك النهر.. أجل، هكذا تسير الأمور. كل شيء لم يبلغ نهايته من المعاناة، ولم يبلغ خاتمته النهائية، يعود من جديد، ويعاني الأحزان نفسها. ووثب سيد هارتا إلى الزورق مرة أخرى. وجعل يجدف عائداً إلى الكوخ متذكراً أباه، مفكراً في ابنه، يضحك منه النهر، في مشاقة مع نفسه، مشرفاً على هاوية اليأس، وإن لم يكن أقل م يلاً للضحك بصوت مرتفع من نفسه، ومن العالم أجمع. وما فتئ الجرح يوخزه. وما برح متمرداً على قدره.. ولكنه لم يظفر بعد بالسكينة، وبالتغلب على عذابه. ومع ذلك، كان مفعماً بالرجاء. وعندما عاد إلى الكوخ، كان ممتلئاً برغبة لا تقهر للاعتراف إلى ڤازوديڤا، للإفصاح بكل شيء، والإفضاء بكل شيء إلى الرجل الذي أجاد فن الإصغاء..

كان ڤازوديڤا جالساً في الكوخ يضفر سلة، إذ لم يعد يعمل على المعدية، فقد ضعفت عيناه، وكذلك وهنت ذراعاه ويداه.. ولكن السعادة والطمأنينة الراضية كانتا مشرقتين على وجهه دون تغيير..

وجلس سيد هارتا إلى جانب الرجل العجوز، وشرع يتحدث في تؤدة. فأخبره الآن بما لم يذكره من قبل أبداً، وكيف ذهب إلى المدينة، وتحدث إليه عن جرحه الأليم، وعن جسد لمنظر الآباء السعداء، وعن نضاله اليائس مع نفسه. وذكر كل شيء..

فهو يستطيع أن يبوح له بكل شيء حتى أشد الأشياء إيلاماً.. يستطيع أن يصرح بكل شيء، وكشف عن جرحه، وأخبره بهربه ذلك اليوم، وكيف جدَّف عبر النهر بغرض التجول في المدينة، وكيف ضحك النهر.

وكلما مضى في الحديث، واستمع إليه فازوديفا بوجه رزين، أحس سيد هارتا إحساساً أشد حدة عن أي وقت مضى بانتباه فازوديفا الشديد إليه. أحس أن متاعبه وأسباب قلقه تتدفق إليه، ثم تعود مرة أخرى. وكان الكشف عن جرحه لمستمعه مثل غسله في النهر حتى يبرد ليصبح هو والنهر شيئاً واحداً. وكلما أمعن سيد هارتا في الحديث والاعتراف، ازداد إحساسه بأن الشخص الذي أمامه لم يعد فازوديفا.. لم يعد إنساناً ينصت إليه. لقد شعر أن هذا المستمع الذي لا يبدي حراكاً، يمتص اعترافه كما يمتص الشجر مياه المطر، وأن هذا الرجل الساكن هو النهر نفسه.. هو الإله نفسه هو الأبدية نفسها. وعندما كف سيد هارتا عن التفكير في نفسه، وفي جرحه، استولى عليه هذا الإدراك للتغيير الذي طرأ على فازوديفا. وكلما تأكد منه، بدا له أقل غرابة، وازداد تأكده بأن كل شيء طبيعي وفي موضعه الصحيح، وأن فازوديفا قد كان منذ مدة طويلة ـ بل دائماً تقريباً ـ على هذا الحال. كل ما في الأمر أنه لم يكن يدرك ذلك

إدراكاً تاماً، بل إنه هو نفسه لا يكاد يختلف عنه.. وأحس أنه ينظر الآن إلى ڤازوديڤا كما كان الناس ينظرون إلى الآلهة، وأن ذلك لا يمكن أن يدوم. وبدأ يفترق ـ داخلياً ـ عن ڤازوديڤا، وإن واصل حديثه أثناء ذلك.

وعندما انتهى من الكلام، وجه ڤازوديڤا نظرته الواهنة إليه. ولم يتفوه بشيء، غير أن وجهه كان يشع في صمت بالحب والطمأنينة. بالفهم والمعرفة. وتناول يد سيد هارتا، وقاده إلى المقعد على شاطئ النهر، وجلس إلى جواره، وابتسم للنهر.. قال: "لقد سمعته يضحك، ولكنك لم تسمع كل شيء.. دعنا نصغي وستسمع المزيد".

واستمتعا... وترددت أغنية النهر متعددة الأصوات في عذوبة. ونظر سيد هارتا في النهر، فأبصر صوراً كثيرة في الماء المنساب.. شاهد أباه وحيداً، وبأغلال الحنين إلى ابنه البعيد، وشاهد ابنه وحيداً هو أيضاً، والغلام يتقدم متلهفاً في الطريق المحرق المفروش بشهوات الحياة. كل واحد منهما يركز على هدفه، وكلاهما مملوك بهدفه، وكلاهما يتعذب. كان صوت النهر ينضح بالأسى، وكان يغني في حنين وحزن، سارياً نحو هدفه.

وسألته نظرة ڤازوديڤا البكماء: "أو تسمع؟". فأطرق سيد هارتا برأسه مجيباً. فهمس ڤازوديڤا أن يرهف السمع أكثر وتداخلت صورة أبيه وصورته وصورة ابنه.. كل في الأخرى

وظهرت أيضاً صورة كماله، وامتزجت بالصور الأخرى وصورة جوفيندا، وصور أخرى ظهرت ومرت، وأصبحت جميعاً جزءاً من النهر. كان هو هدفها جميعاً، الحنين والرغبة والعذاب. وكان صوت النهر زاخراً بالشوق، مفعماً بالفجيعة الموجعة، حافلاً بالشهوة التي لا تشبع. وانساب النهر صوب هدفه. ورأى سيد هارتا أن النهر يسرع في جريانه، مُكَوَّناً منه ومن أقاربه ومن الناس الذين رآهم جميعاً. وأسرعت الأمواج والمياه جميعاً معذَّبة، صوب أهدافها.. أهدافها الكثيرة. متجهة صوب الشلال، صوب البحر، صوب التيار، إلى المحيط.. لقد تم بلوغ الأهداف كلها. غير أن كل هدف كان يخلفه هدف آخر. وتحولت المياه إلى بخار وتصاعدت، ثم أصبحت مطراً وسقطت على الأرض مرة أخرى، ثم استحالت جدولاً وغديراً ونهراً. وتغيرت من جديد وتدفقت من جديد. غير أن الصوت الشيق قد تحول، إنه ما زال يتردد أسيان، باحثاً ولكن تصاحبه أصوات أخرى. أصوات السعادة والحزن، أصوات خيرة وشريرة، ضاحكة ومنتحبه.. مئات الأصوات، آلاف الأصوات.

وأنصت سيد هارتا.. كان ينصت الآن في تركيز شديد، مستغرقاً تمام الاستغراق، خالياً من كل شيء، حاوياً لكل شيء. وأحس أنه قد تعلم الآن تماماً فن الإصغاء. وكان قد سمع هذا كله من قبل مراراً وتكراراً. هذه الأصوات المتعددة جميعاً

صادرة عن النهر، ولكنها ترن اليوم رنيناً مختلفاً. ولم يعد قادراً على تمييز الأصوات المختلفة، الصوت المرح من الصوت الباكي، والصوت الطفولي من الصوت الرجولي.. إنها تنتمي جميعاً بعضها إلى البعض الآخر. عويل أولئك الذين يشتاقون، ضحك الحكماء، صيحة السخط، وأنين المتحضر. كانت كلها متداخلة متضافرة بآلاف الطرق، تؤلف نسيجاً واحداً. وهذه الأصوات جميعاً والأهداف جميعاً، وألوان الحنين والأحزان، والمسرات، والخير والشر.. كلها مجتمعة معاً هي العالم. كلها مجتمعة معاً هي تيار الحوادث، موسيقى الحياة..

وعندما أنصت سيد هارتا في انتباه إلى هذا النهر.. إلى هذه الأغنية التي تتألف من ألف صوت، وعندما لم يستمع إلى الأسى أو الضحك، وعندما لم يقيد روحه إلى صوت واحد بعينه، ليستوعبه في ذاته، وإنما أنصت إليها جميعاً.. إلى الكل.. إلى الوحدة.. حينئذ كانت الأغنية العظيمة ذات الألف صوت تتألف من كلمة واحدة "أوم" ـ الكمال.

وسألته نظرة فازوديفا مرة أخرى: "أو تسمع؟". وكانت ابتسامة فازوديفا تشع بالضياء. وكانت ترفرف مشرقة على غضون وجه العجوز كلها. في الوقت الذي ترفرف فيه "أوم" على أصوات النهر جميعاً، كانت ابتسامته وضاءة وهو ينظر إلى صديقه. والآن ظهرت هذه الابتسامة نفسها على وجه سيد هارتا.

كان جرحه يلتئم، وكان ألمه يتبدد. لقد امتزجت ذاته بالوحدة التي تحتضن الأشياء جميعاً..

منذ تلك الساعة، كف سيد هارتا عن الكفاح ضد مصيره. وعلى محياه أشرقت سكينة المعرفة.. سكينة شخص لم يعد يواجهه تضارب الرغبات. شخص وجد الخلاص وأمسى في انسجام مع تيار الأحداث، مع تيار الحياة، مليئاً بالتعاطف والمشاركة، مسلماً نفسه للتيار، منتمياً إلى وحدة الأشياء جميعاً.. وعندما نهض ڤازوديڤا من مقعده على شاطئ النهر، نظر في عيني سيد هارتا، فرأى صفاء المعرفة يتلألأ فيهما، لمس كتفه في رفق بطريقته العطوف الحانية وقال: "لقد انتظرت هذه الساعة يا صديقي.. وها هي قد وصلت الآن. دعني أذهب.. لقد كنت ڤازوديڤا.. الملاح وقتاً طويلاً.. والآن، اكتمل كل شيء وداعاً أيها الكوخ. وداعاً أيها النهر، وداعاً يا سيد هارتا". وانحنى سيد هارتا انحناءة بالغة إزاء الرجل المرتحل.

قال بصوت رقيق: "كنت أعلم ذلك. هل ستذهب إلى الغابات؟" فأجاب ڤازوديڤا مبتهجاً: "أجل سأذهب إلى الغابات. سأذهب إلى وحدة الأشياء جميعاً.." وهكذا رحل. وجعل سيد هارتا يتابعه.. وفي فرح غامر، ووقار جليل، أخذ يراقبه، فشاهد خطواته عامرة بالسلام، ووجهه متألقاً وهيئته سابحةً في الضياء..

الفصل الثاني عشر

جوفيندا

أمضى جوفيندا ـ ذات يوم ـ فترة راحة مع بعض النساك الآخرين في بستان المتعة الذي أهدته كماله الغانية لأتباع "جوتاما". وهناك سمع حديثاً عن ملامح عجوز يعيش على شاطئ النهر، على مسافة تقطعها الرحلة في يوم. وهذا الملاح العجوز يعتبره الكثيرون حكيماً، وعندما شد "جوفيندا" رحاله، اختار سبيل المرسى، تواقاً إلى رؤية هذا الملاح. ذلك أنه على الرغم من أنه عاش وفقاً للقاعدة.، وكان النساك الأصغر منه سناً ينظرون إليه في احترام بسبب سنه وتواضعه ـ على الرغم من هذا، إلا أن شيئاً من عدم الاستقرار كان لا يزال في قلبه، كما أنه لم يصل بعد إلى الرضا عن سعيه.

وبلغ النهر، فطلب من الملاح أن يعبر به النهر. فلما هبطا من الزورق على الجانب الآخر، قال للرجل العجوز. "أنت تبدي كثيراً من العطف للنساك والحجيج، وقد عبرت بالكثيرين منا هذا

النهـر، ألسـت أنـت أيضـاً باحثـاً عـن الطريـق القـويم؟" وشـاعت ابتسـامة في عـيني سـيد هارتـا الكليلتين وقـال: "أتسـمى نفسـك باحثاً، أيها الرجل المبجل، أنت يامن تقدمت بك السنون، وترتدي ثوب النساك من أتباع جوتاما؟"

قال جوفيندا. "أنا عجوز حقاً، ولكنني لم أنقطع قط عن البحث، ولن انقطع أبداً. ويبدو أن هذا هو قدري. ويبدو لي أنك بحثت أنت أيضاً. فهل حدثتني عن هذا قليلاً يا صديقي؟".

قال سيد هارتا. "ماذا يمكن أن أقول لك مما له قيمة، إلا إذا قلت لك إنك تبحث أكثر من اللازم، وإنه نتيجة لبحثك هذا، فإنك لا تستطيع أن تجد".

فسأله جوفيندا: "وكيف هذا؟" قال سيد هارتا: "عندما يبحث إنسان يحدث ـ في سهولة تامة ـ أنه لا يرى إلا الشيء الذي يبحث عنه، وهذا معناه أنه عاجز عن أن يجد شيئاً، أو أن يستوعب شيئاً، وذلك لأنه لا يفكر إلا في الشيء الذي يبحث عنه، لأن له هدفاً، ولأنه أسير هذا الهدف والبحث معناه.. أن يكون لك هدف. أما العثور فمعناه.. أن تكون حراً، أن تكون متلقياً، ألا يكون لك هدف. وأنت ـ أيها الشيخ الوقور ـ ربما كنت باحثاً بحق، لأنك بسعيك نحو هدفك لا تبصر كثيراً من الأشياء التي تمر تحت أنفك".

قال جوفيندا: لست أفهم عنك جيداً. ماذا تعني؟"

قال سيد هارتا: "حدث ذات مرة.. أيها الشيخ الجليل ـ منذ سنوات عديدة أن أتيت إلى هذا النهر، ووجدت شخصاً نائماً هناك، فجلست إلى جواره لتحرسه أثناء نومه، ولكنك لم تعرف الرجل النائم يا جوفيندا؟"

فبهت الناسك، وكأنما أصابه مَسٌ من السحر وحملق في الملاح، وتساءل في صوت يشوبه الوجل:

"أأنت سيد هارتا؟ لم أتعرف عليك، هذه المرة أيضاً. وأنا سعيد جداً لرؤيتك مرة أخرى يا سيد هارتا، سعيد غاية السعادة. لقد تغيرت كثيراً يا صديقي. وهل أصبحت ملاحاً الآن؟".

وضحك سيد هارتا في حرارة: "أجل، لقد أصبحت ملاحاً.. ولا بد لكثير من الناس أن يتغيروا تغيراً كبيراً، وأن يرتدوا كل أنواع الثياب. وأنا واحد من هؤلاء يا صديق. مرحباً بك يا جوفيندا. وأنا أدعوك لقضاء الليلة في كوخي".

وقضى جوفيندا ليلته في الكوخ. ورقد على السرير الذي كان يوماً لڤازوديڤا، وجّه إلى صديق صباه كثيراً من الأسئلة، وكان في جعبة سيد هارتا الكثير مما يريد أن يرويه له عن حياته. وعندما حان وقت رحيل جوفيندا في صباح اليوم التالي، قال في شيء من التردد: "قبل أن أمضي في طريقي، أود أن اسألك

يا سيد هارتا سؤالاً واحداً آخر. هل لك مذهب، أو عقيدة أو معرفة تعتنقها، وتعينك على أن تعيش وتفعل الصواب".

قال سيد هارتا: "أنت تعرف يا صديقي أنني حتى عندما كنت يافعاً، وكنا نعيش مع الزهاد في الغابة، انتهيت إلى الارتياب في المذاهب والمعلمين، وإلى أن أدير ظهري لهم. وما زلت على نفس هذا الاتجاه العقلي، وإن كان لي منذ ذلك الحين، كثير من المعلمين. فهناك غانية جميلة كانت معلمتي فترة طويلة، وهناك أيضاً تاجر غني، ولاعب بالنرد. وفي إحدى المناسبات، وقف مني أحد نساك بوذا الحواريين موقف المعلم، إذ توقف في رحلة حجه ليقعد إلى جانبي عندما غلبني النوم في الغابة.. ومنه أيضاً تعلمت شيئاً، وأنا عارف لجميله، شديد العرفان، ولكنني تعلمت أكثر من هذا النهر، ومن سَلَفي ڤازوديڤا. كان رجلاً بسيطاً، ولم يكن مفكراً، ولكنه أدرك ما هو جوهري، كما أدركه جوتاما.. كان رجلاً مباركاً، قديساً".

قال جوفيندا: "يبدو لي يا سيد هارتا أنك ما زلت تحب المزاح قليلاً. وأنا أصدقك. وأعرف أنك لم تتبع أي معلم. ولكن إن لم يكن لك مذهب، أليس لك أنت نفسك أفكار معينة؟ ألم تكتشف أنت نفسك معرفةً معينةً أعانتك على الحياة؟ سيكون من دواعي غبطتي الكبرى أن تخبرني بشيء من هذا؟"

قال سيد هارتا: "أجل، إن لدي أفكاراً ومعرفة هنا وهناك. وفي بعض الأحيان ربما امتدت ساعة أو يوماً ـ أحس أنني على وعي بالمعرفة، كما يحس المرء بالحياة تنبض في قلبه. كانت لي أفكار كثيرة، ولكن من العسير عليّ أن أحدثك عنها. ولكن، إليك هذه الفكرة التي تركت تأثيرها في نفسي يا جوفيندا. الحكمة لا تقبل التوصيل، والحكمة التي يحاول الرجل العظيم توصيلها للآخرين، تبدو دائماً حمقاء؟" فتساءل جوفيندا: "أتراك مازحاً؟"

ـ "كلا، وإنما أخبرك بما اكتشفته. المعرفة يمكن أن تكون قابلة للتوصيل، أما الحكمة فلا. وقد يستطيع المرء أن يعثر على الحكمة، وأن يتقوى بها، وأن يصنع الأعاجيب من خلالها، ولكنه لن يستطيع توصيلها وتعليمها للآخرين. وقد خايلتني شبهة من هذا عندما كنت شاباً. وكان هذا هو ما دفعني بعيداً عن المعلمين. إن عندي فكرة واحدة ـ يا جوفيندا ـ قد تظنها مزحة أو جنوناً، وهي أنه في كل حقيقة، العكس هو أيضاً صحيح، وعلى سبيل المثال، لا يمكن التعبير عن حقيقة ما وتغليفها في كلمات إلا إذا كانت متحيزة لجانب واحد، وكل ما يمكن التفكير فيه والتعبير عنه في كلمات ذات جانب واحد، أي نصف الحقيقة فحسب، إنه يفتقر حينئذ إلى الشمول

والاكتمال والوحدة، وعندما كان بوذا المستنير يعلمنا عن العالم، كان لا بد له من تقسيمه إلى سانسارا ونيرڤانا، إلى الوهم والحقيقة، إلى العذاب والخلاص، ولا مندوحة للمرء عن ذلك، إذ لا يوجد منهج آخر أمام من يتصدون للتعليم. يبدو أن العالم نفسه بوجوده فينا ومن حولنا ـ لا يمكن أن يكون أبداً ذا جانب واحد، فما من إنسان أو فعل يمكن أن يكون كله سانسارا، أو كله نيرڤانا. ليس لإنسان أن يكون قديساً خالصاً، أو خاطئاً خالصاً، وإنما يبدو ذلك لنا فحسب، لأننا نعاني من وهم يجعل الزمان شيئاً حقيقياً. الزمان ليس حقيقياً يا جوفيندا، وقد أدركت ذلك مراراً، فإذا لم يكن الزمان حقيقياً، إذن فإن الحد الفاصل الذي يبدو أنه يقوم بين هذا العالم وبين الأبدية، بين الشقاء والسعادة، بين الخير والشر، هو أيضاً وهم". وتساءل جوفيندا وقد اختلط عليه الأمر "وكيف كان ذلك؟".

ـ "اسمع يا صديقي.. أنا خاطئ ـ وأنت خاطئ، ولكن الخاطئ سيصير براهما ذات يوم، والآن فإن هذا الـ"ذات يوم" وهم. إنه مجرد تشبيه، فالخاطئ ليس في طريقه إلى حالة. يصير فيها بوذا، إنه لا يتطور. وإن كان تفكيرنا لا يستطيع أن يتصور الأمور إلا على هذا النحو. كلا إن بوذا الممكن موجود فعلاً في الخاطئ ومستقبله قائم هناك فعلاً.

"وهذا البوذا الممكن المستتر، ينبغي أن نتعرف عليه فيه، فيك، في كل إنسان".

"ليس العالم ناقصاً يا جوفيندا، ولا يتطور تطوراً بطيئاً في طريق طويل إلى الكمال؛ كلا، إنه كامل في كل لحظة، وكل خطيئة تنطوي في داخلها على الغفران، والأطفال الصغار جميعاً شيوخ كبار بالإمكان. والرضع جميعاً يحملون الموت كامناً فيهم ـ والأموات كافة موعودون بالحياة الأبدية. وليس من الممكن لشخص واحد أن يرى إلى أي مدى بلغ شخص آخر من أشواط الطريق، إن بوذا موجود في اللص مثلما هو موجود في المقامر، واللص موجود في البرهمي. ومن الممكن أثناء التأمل العميق نفي الزمان، ورواية الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً في آن معاً، وعندئذ يصبح كل شيء خيراً، كاملاً، أو براهماً، ومن ثم، يبدو لي أن كل ما هو موجود خير ـ الموت والحياة على حد سواء. الخطيئة والقداسة، الحكمة والجنون. كل شيء ضروري، كل شيء لا يحتاج إلا لموافقتي، وتسليمي وفهمي المحب، وحينئذ يصبح كل شيء على خير ما يرام معي، ولا يستطيع شيء أن يصيبني بضر. لقد تعلمت عن طريق جسدي وروحي أنه لا مفر لي من الوقوع في الألم، وأنني في حاجة إلى الشهوة، وأنه ينبغي على أن أسعى للتملك، وأن أعاني الغثيان

وأعماق اليأس حتى أتعلم ألا أقاومها، وحتى أتعلم أن أعشق العالم وأن أكف عن مقارنته بنوع آخر من العالم الخيالي المرغوب فيه، بنوع من الرؤية الخيالية للكمال، وإنما أن أتركه كما هو، وأن أحبه وأن أكون مسروراً بالانتماء إليه. هذه يا جوفيندا هي بعض الأفكار التي تدور في خلدي".

وانحنى سيد هارتا إلى الأرض ورفع حجراً وظل ممسكاً به في يده. قال وهو يتناوله: "هذا حجر، ولعله أن يصبح تربة بعد فترة معينة من الزمن، وربما خرج من التربة على هيئة نبات أو حيوان أو إنسان، وأما فيما سبق من أيامي، فقد كنت أقول: هذا حجر ولا يعدو أن يكون حجراً، ولا قيمة له، فهو ينتمي إلى عالم "المايا"، ولكن لأنه من الممكن أن يصير في دورة، التغير إنساناً أو روحاً، كانت له أهمية هو أيضاً. كان هذا ما يمكن أن يذهب إليه فكري، أما الآن، فإني أفكر على هذا النحو: هذا الحجر حجر، وهو أيضاً حيوان وإله وبوذا، وأنا لا أحترمه وأحبه لأنه كان شيئاً وسيصبح شيئاً آخر، ولكن لأنه كان فعلاً كل شيء، وسيصبح دائماً كل شيء. وأنا أحبه لأنه مجرد حجر، ولأنه اليوم والآن يظهر لي على أنه حجر.. وأنا أرى القيمة والمعنى في كل ملمح من ملامحه، وكل تجويف من تجاويفه، في صفرته، ورماديته، وصلابته والصوت الذي ينبعث منه عندما أدقه، وفي الجفاف والرطوبة على سطحه. وهناك أحجار ذات

ملمس كالزيت أو الصابون، ومنها ما يبدو كأوراق الشجر أو الرمال.. كل واحد فيها مختلف ويعبد "أوم" على طريقته الخاصة، ولكنه في الوقت نفسه حجر شديد التحجرية، زيتياً كان أو صابونياً. وهذا بالذات هو ما يسرني، وما يبدو رائعاً، خليقاً بالعبادة.. ولكنني لن أقول المزيد من ذلك، فالكلمات لا تحسن التعبير عن الأفكار، إذ تتحول دائماً فتصبح شيئاً مختلفاً حالما يتم التعبير بها، شيئاً متشوهاً، أرعن إلى حد ما. ومع ذلك، فإنها تسعدني أيضاً، ويبدو من الصواب أن ما يبدو ذا قيمة وحكمة في نظر شخص، يبدو تافهاً لا معنى له في نظر شخص آخر".

وكان جوفيندا يصغي في صمت.

سأل متردداً بعد برهة: "لماذا حدثتني عن الحجر؟".

ـ "لقد فعلت ذلك عن غير قصد. ولكن ربما كان يصور لك أنني أعشق الحجر والنهر، وكل تلك الأشياء التي تشاهدها، والتي يمكن أن تتعلم منها. إنني أستطيع أن أحب حجراً يا جوفيندا، وشجرة، أو قطعة من اللحاء، هذه كلها أشياء، ويستطيع المرء أن يحب أشياء.

"ولكن الإنسان لا يستطيع أن يهوى ألفاظاً، وعلى هذا فإن التعاليم لا تجديني نفعاً، فهي لا تتميز بصلابة أو نعومة، وليس

فيها ألوان ولا أركان أو روائح أو طعوم ـ ليس فيها شيء سوى الألفاظ، ولعل هذا ما يحول بينك وبين العثور على الخلاص، وربما كانت هناك ألفاظٌ أكثر من اللازم. ذلك أنه حتى الخلاص والفضيلة، والسانسارا والنيرڤانا لا تعدو أن تكون مجرد ألفاظ يا جوفيندا. النيرڤانا ليست شيئاً، ولا وجود لغير كلمة "نيرڤانا" قال جوفيندا: "نيرڤانا ليست مجرد كلمة يا صديقي، إنها فكرة". فواصل سيد هارتا حديثه قائلاً: "قد تكون فكرة، ولكن ينبغي أن أعترف يا صديقي، بأنني لا أفرق كثيراً بين الأفكار والألفاظ. وبكل صراحة، أنا لا أعلق أيضاً أهمية أعظم على الأشياء. فقد كان هنا في هذا المرسى ـ على سبيل المثال ـ رجل كان سلفي وأستاذي.. كان رجلاً مقدساً ظل سنوات طويلة لا يؤمن إلا بهذا النهر ولا شيء سواه.. وقد لاحظ أن صوت النهر يتحدث إليه.. فتعلم منه، وكان الصوت يربيه ويلقنه، وقد بدا له النهر إلهاً، وظل أعواماً متعاقبة لا يعرف أن كل ريح، وكل سحابة وكل طائر، وكل برعم، إلهي أيضاً، وأنه يعرف ويستطيع أن يعلم مثلما يعلم النهر المبجل. ولكن عندما رحل هذا الرجل المقدس إلى الغابات، كان قد عرف كل شيء، كان يعرف أكثر مما نعرفه أنت وأنا، بغير معلمين وبغير كتب، كل ما في الأمر أنه آمن بالنهر".

قال جوفيندا "ولكن هذا الذي تدعوه شيئاً، هل هو شيء حقيقي.. شيء جواني؟ أليس مجرد وهم للمايا.. مجرد صورة وظاهر؟ حجرك، وشجرتك هل هما حقيقتان؟"

قال سيد هارتا: "وهذا أيضاً لا يزعجني في كثير أو قليل. فلو أنهما وهم، فسأكون أيضاً أيضاً وهماً، وهكذا سيكونان دائماً من نفس طبيعتي. وهذا ما يجعلهما خليقين بكل هذا الحب والإجلال، وهذا ما يجعلني أحبهما. وإليك هذا المذهب الذي سيضحكك..

"يبدو لي يا جوفيندا أن الحب هو أعظم شيء في العالم، وقد يكون من المهم لكبار المفكرين أن يفحصوا العالم، وأن يفسروه أو يحتقروه، ولكنني أعتقد أن الشيء المهم الوحيد هو أن تحب العالم، لا أن تزدريه، وليس لنا أن يبغض أحدنا الآخر، بل أن نكون قادرين على أن ننظر للعالم وإلى أنفسنا وإلى كل الكائنات في حب وإعجاب وإجلال".

قال جوفيندا: "أفهم هذا. ولكن هذا بعينه ما كان يسميه المستنير وهماً. كان يدعو إلى الإحسان والتحمل، والتعاطف والصبر. ولكنه لم يكن يدعو إلى الحب. كان يحذرنا من تقييد أنفسنا بالحب الأرضي".

قال سيد هارتا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة: "أعرف ذلك. أعرف ذلك يا جوفيندا، وهنا نجد أنفسنا داخل متاهة المعاني، وسط صراع الألفاظ. فأنا لا أنكر أن كلماتي عن الحب تناقض تعاليم جوتاما تناقضاً ظاهرياً ـ وهذا ما يجعلني أفقد الثقة بالكلمات. لأنني أعلم أن هذا التناقض وهم.

"فإنني أعلم أنني و"جوتاما" لا نختلف في شيء. كيف يمكن ـ حقاً ألا يعرف الحب، هو الذي أدرك غرور البشر ووجودهم العابر، ومع ذلك فإنه يحب الإنسانية إلى درجة أنه كرس حياة طويلة لمساعدة الناس وتعليمهم؟ ومع هذا العلم العظيم أيضاً، يبدو لي الشيء أعظم أهمية من الكلمات، وأعماله وسيرته أهم عندي من الآراء، فأنا لا أنظر إليه بوصفه رجلاً عظيماً في مجال الخطابة أو الفكر، وإنما في أعماله وسيرته".

وأخلد الشيخان إلى الصمت فترة طويلة. ولما أخذ جوفيندا يتأهب للرحيل قال: "أشكرك يا سيد هارتا لإفضائك إلي بشيء عن أفكارك، وبعضها أفكار غريبة، ولا أستطيع أن أستوعبها في الحال. ومهما يكن من أمر، فأنا أشكرك وأتمنى لك أياماً كثيرة يسودها السلام".

ولكنه كان يفكر في نفسه على كل حال قائلاً: إن سيد هارتا رجل غريب، وهو يعبر عن أفكار غريبة، وتبدو أفكاره أشبه بالجنون. وما أشد اختلاف معتقدات المستنير عنها. إن أفكاره واضحة، مستقيمة، قابلة للفهم، ولا تنطوي على شيء، غريب وحشي، أهل للضحك. يبدو أن يدي سيد هارتا وقدميه، وعينيه، وجبينه، وتنفسه، وابتسامته وطريقته في التحية والمشية، تؤثر عليّ تأثيراً مختلفاً عن أفكاره. ولم ألتق قط منذ أن انتقل جوتاما المستنير إلى النيرڤانا.. لم ألتق بأحد اللهم إلا سيد هارتا، أحسست إزاءه: بأن هذا هو رجل مقدس!

وقد تكون أفكاره غريبة، وألفاظه حمقاء، ولكن نظرته ويده، وبشرته وشعره.. كلها تشع صفاءً وسلاماً، وسكينة، ورفقاً، وقداسة لم أرها قط في أي إنسان منذ وفاة معلمنا المستنير.. وبينما كان جوفيندا يقلب هذه الأفكار، وكان قلبه نهباً للصراع، انحنى مرة أخرى لسيد هارتا ونفسه فياضة بالحب نحوه. وكانت انحناءته خفيضة أمام الرجل الجالس في هدوء.

قال: "سيد هارتا، نحن الآن شيخان، وقد لا يرى أحدنا الآخر في هذه الحياة مرة أخرى. وأنا أرى ـ يا صديقي العزيز ـ أنك قد وجدت السلام وأدرك أنني لم أجده. قل لي كلمة أخرى واحدة يا صديقي المحترم ـ قل لي شيئاً أستطيع أن أتصوره،

أستطيع أن أفهمه: أعطني شيئاً يمكن أن يساعدني في طريقي يا سيدي هارتا. فطريقي شاق مظلم في معظم الأحيان". وكان سيد هارتا صامتاً، ينظر إليه تلك النظرة الهادئة التي يسودها السلام. ونظر جوفيندا في وجهه نظرة ثابتة في شيء من القلق والشوق، وكان الألم والبحث الدائب والإخفاق المستمر مسطورة في نظرته.

ورآها سيد هارتا فابتسم.

وهمس في أذن جوفيندا "مل بالقرب مني. تعال، أقرب من ذلك، على مقربة مني تماماً! وقبلني على الجبين يا جوفيندا" ومع دهشته البالغة، كان جوفيندا مدفوعاً بحب عظيم إلى إطاعته، فمال قريباً منه، ولثم جبينه بشفتيه، وما أن فعل ذلك حتى وقع له شيء عجيب.. فبينما كان يفكر في كلمات سيد هارتا الغريبة، وبينما كان يجاهد عبثاً في استبعاد تصور الزمان، وتصور النيرڤانا والسانسارا بوصفهما شيئاً واحداً، وبينما كان نوع من الازدراء لكلمات صديقه يتصارع مع حب هائل وتقدير له حدث له هذا:

لم يعد يشاهد وجه صديقه سيد هارتا ـ وبدلاً من ذلك، شاهد وجوهاً أخرى: وجوهاً كثيرة.. سلسلة طويلة، تياراً مستمراً من الوجوه. مئات ـ آلاف، ظهرت جميعاً ثم اختفت ومع ذلك بدت

كأنها موجودة كلها هناك في وقت واحد. وكانت هذه الوجه تتغير كلها باستمرار وتجدد أنفسها، ومع ذلك كانت كلها سيد هارتا، ورأى وجه سمكة ووجه شبوطة بفم هائل مفتوح يعبر عن الألم، سمكة تموت بعينين معتمتين، وشاهد وجه طفل حديث الولادة، أحمر مليئاً بالغضون، متأهباً للصراخ، ورأى وجه قاتل يغمد سكينه في جسد إنسان وفي نفس اللحظة أبصر هذا المجرم جاثياً على ركبتيه مقيداً بالأغلال، وقد أطاح الجلاد برأسه. ورأى أجساد الرجال والنساء العرايا في أوضاع الحب الشهواني ونشواته، ورأى جثثاً ممدودة، ساكنة، باردة جوفاء.. ورأى رؤوس حيوانات وخنازير وتماسيح وفيلة وثيران وطيور. ورأى كريشنا وآجنى، رأى كل هذه الأشكال والوجوه في آلاف العلاقات بعضها مع البعض الآخر، وكلها يساعد بعضها البعض: محبة، مُبْغضة، مُدمرة بعضها للبعض الآخر لتولد من جديد. كان كل منها فانياً، نموذجاً حياً مؤلماً لكل ما هو عابر. ومع ذلك لم يمت واحد منهم، وإنما كان يتغير فحسب، ويولد دائماً من جديد، ويتخذ باستمرار وجهاً جديداً. كان الزمان وحده هو الذي يفصل بين وجه وآخر.. وكانت هذه الأشكال والوجوه جميعاً تستقر، وتتدفق، وتظهر من جديد،

وتسبح عابرة ثم يندمج أحدها في الآخر. وكان فوقها جميعاً باستمرار شيء رقيق غير واقعي، ولكنه موجود. ممدوح عليها كغشاوة رقيقة من الزجاج أو الثلج، كأنه بشرة شفافة، صدفة، صورة أو قناع من الماء ـ وهذا القناع هو وجه سيد هارتا الباسم الذي لثمه جوفيندا بشفتيه في تلك اللحظة.. ورأى جوفيندا أن هذه الابتسامة الشبيهة بالقناع، ابتسامة الوحدة هذه التي تشرف على الأشكال المتدفقة، ابتسامة التزامن هذه المنتشرة فوق آلاف الولادات والوفيات ـ ابتسامة سيد هارتا هذه هي نفس ابتسامة جوتاما، بوذا، الهادئة، الرقيقة الغامضة التي ربما كانت رشيقة أو ساخرة أو حكيمة، ابتسامة جوتاما ذات الألف معنى الذي أبصرها في رهبة مئات المرات. وكان جوفيندا يعلم أن بهذه الطريقة ابتسم "الكامل".

ودون أن يدري هل وُجد زمان أولم يوجد، وسواء استغرق هذا الكشف ثانية واحدة أو مائة عام، أو كان هناك سيد هارتا أو جوتاما، ذات أو ذوات أخرى، فقد كان مجروحاً في أعماقه بسهم إلهي منحه السعادة، وغمره بالسحر والانتشاء. ووقف جوفيندا برهة منحنياً فوق وجه سيد هارتا المطمئن الذي لثمه منذ لحظات، والذي كان مسرحاً لكل الصور الحاضرة

والمستقبلة، وظلت ملامحه دون تغيير بعد أن اختفت المرآة ذات الألف صورة من صفحته. وابتسم في سكينة ورفق وربما في تهكم شديد، تماماً كما كان المستنير يبتسم.

وانحنى جوفيندا انحناءة خفيضة، فانهمرت دموع لم يستطع لها دفعاً فوق وجه العجوز.. وقد استبد به شعور بحب عظيم، وتوقير شديد التواضع، انحنى حتى لامس الأرض أمام الرجل الذي يجلس هناك بلا حراك. الرجل الذي ذكرته ابتسامته بكل ما أحبه في حياته، بكل ما كان قَيِّماً مقدساً في حياته...

المحتوى

تقديم...5
الفصل الأول: ابن البرهمي..11
الفصل الثاني: مع السامانا "النساك"....................................25
الفصل الثالث: جوتاما...41
الفصل الرابع: اليقظة...55
الفصل الخامس: كماله..61
الفصل السادس: مع الناس...83
الفصل السابع: سانسارا...97
الفصل الثامن: على ضفاف النهر......................................111
الفصل التاسع: الملاح..129
الفصل العاشر: الابن...147
الفصل الحادي عشر: أوم...161
الفصل الثاني عشر: جوفيندا...171

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
115	رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني	د. نـــزار بنـــي المرجة	د. نضال الصالح	2017
116	(عمـلاء النفـوذ) وتفكيك الاتحـاد السوفييتي	د. ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمـــت بـــراهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريَّات...أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017
120	الله والفقر	مالك صقور	مالك صقور	2017
121	قسطنطين زريق مفكراً ومؤرخاً	عيسى فتوح	عيسى فتوح	2017
122	جرح الوطن	محمد حديفي	محمد حديفي	2017
123	فن القصة والمقامة	نذير جعفر	مالك صقور	2017
124	فلاسفة الحكم في العصر الحديث	فلك حصرية	مالك صقور	2017
125	أشعب ملك الطفيليين	فلك حصرية	مالك صقور	2017
126	فيلسوف الفريكة	د. خلف الجراد	مالك صقور	2017
127	الخيال الشعري عند العرب	فلك حصرية	مالك صقور	2018
128	قميص الصوف وقصص أخرى	مالك صقور	فلك حصرية	2018
129	أيقونات	فلك حصرية	فلك حصرية	2018
130	الحياة في الظل	صالح سميا	صالح سميا	2018